عدد خاص

روايات الهلال

بنت من شبرا

فتحي غانم

REWAYAT AL-HILAL
No. – [illegible] FEBRUARY



روايات الهلال

REWAYAT AL - HILAL

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٤٦ - فبراير ١٩٨٦ - جمادى الآخرة ١٤٠٦

No. 446 — FEBRUARY 1986

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى.

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال. وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب.

أسعار البيع فى البلاد العربية والخارج للعدد الممتاز فئة ١٠٠ قرش للقارىء فى مصر، سوريا ٢٢٠٠ ق. س، لبنان ٢٢٠٠ ق. ل، الأردن ٦٠٠ فلس، الكويت ٧٠٠ فلس، العراق ٢٢٠٠ فلس، السعودية ٧ ريالات، تونس ٢٠٠٠ مليم، الخليج ١٢٠٠ فلس، الصومال ١٥٠ بنى، لاجوس ١٥٠ بنى، عدن ٢٠٠٠ سنت، لندن ٢٥٠ سنتا، اثينا ٢٥٠ دراخمه، كندا ٦٠٠ سنت، البرازيل ٧٠٠ سنت، استراليا ٧٠٠ سنت، السودان ٢٥٠ ق. سودانى، المغرب ٢٠٠٠ فرنك، غزه والضفة ١١٠ سنت، داكار ١٠٠٠ فرنك، اليمن الشمالية ٢٠ ريال، ايطاليا ٣٠٠٠ ليره.

الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة

تليفون : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

بنت من شبرا

بقلم

فتحي غانم

دار الهلال

الفصـــــل الأول

هذه قصة سيدة ايطالية اسمها « ماريا ساندرو » كانت واحدة من أجمل بنات شبرا في الثلاثينيات ، وهى الآن ، بعد اكثر من نصف قرن ، جدة لصبى مراهق اسمه كريم صفوان نشرت الصحف اسمه أخيرا بمناسبة القبض عليه مع مجموعة من الشبان اعضاء في تنظيم سرى وصفوه بأنه متطرف ، يسعى الى أن يفرض على الناس أحكاما أشبه بتلك التى طبقها فى قديم الزمان « الحاكم بأمر الله »الذى جعل الليل للعمل والنهار للنوم .

وكانت الجدة ماريا في شبابها ، كاثوليكية مثل أبويها وما كان يخطر ببالها ، أنها ستصبح يوما ما جدة لهذا الصبى الذى أطلق لحيته ، وارتدى الجلباب ، وطلق كل ما له صلة بمظاهر الحياة التى يقولون عنها أوروبية ، أو متمدينة .

ولقد كانت « لماريا ساندرو » حكاية مع الله ، وكان طريقها الى الايمان ، طريقا مختلفا تماما عن ذلك الذى اندفع فيه حفيدها .

ولست أزعم أنى أكتب هذه القصة ، لأنى صانع شخصياتها وأحداثها وأريد أن أنقل من خلال احداثها معنى أو عظة الى القارىء ، فلو كان الأمر كذلك لكان كل شيء واضحا تماما امامى ، وربما كان هذا الوضوح يعطل رغبتى فى الكتابة ، فما الذى يدعونى الى أن اكتب ما أعرفه تماما . إن المعرفة بكل التفاصيل والاحاطة بكل أبعاد الموضوع ، تقتل الدافع الى مغامرة الكتابة . وماريا ساندرو امرأة لها منطق المرأة وعواطفها ، ولاأحد يجرؤ على إدعاء بأنه يفهم منطق المرأة ، حتي وهى تتزوج من رجل دينه الاسلام . ومازالت هناك احداث فى حياة ماريا لااستطيع أن افسرها ، او ادافع عنها . ولكنى أقول لنفسى ومن الذى يزعم أنه يفهم نفسه . أو يستطيع أن يفسر كل تصرفاته فى كل ظرف او مناسبة ، إننا كبشر لانستطيع أن نفهم أنفسنا فهما كاملا ، وربما لو تحقق الفهم واكتمل لفقدت الحياة بهجتها ، وربما فقدت حكمة استمرارها .

ومع ذلك ، اعترف أن هناك شيئا ما فى « ماريا ساندرو » له صلة بنا جميعا ، فرغم أنها انسانه عادية جدا ، ولها عالمها العادى والخاص بها ولها أسرارها الشخصية فإنها تشترك معنا جميعا فى أعماقها ، بتلك الفطرة التى تجعلنا ندرك وجود الله ، وحتى لو لم نفكر فى وجوده ، حتى لو حاول بعضنا أن يتشكك أو

يتجاهل أو ينكر وجوده . فرغم كل هذا الذى يندفع اليه البشر فإن أحدا مهما كان الأمر ـ حتى ابليس نفسه ـ لاينكر ان فى قرارة نفسه ، وفى أعمق أعماقه ، نزوعا الى الاتصال بتلك القوة القهارة الجبارة الرحيمة العادلة القادرة وصاحبة كل الصفات ، وخالقة كل الأسماء .

ورحلة « ماريا ساندرو » مع الايمان فرضت عليها ان تجتاز غابة البشر ، وان تسقط فى تجاربهم وتنكوى بنيرانهم وكانت وهى تصلى فى الكنيسة تردد مخاطبة الرب : « لاتدخلنا فى تجربة ، ونجنا من الشرير » ولكن الحياة فرضت عليها الدخول فى التجربة ، اكثر من تجربة ، ولم تنج من الشرير . فلما عرفت الاسلام ، كانت أشبه بالمحارب الذى أثخنته الجراح ، وصهره لهيب المعارك ، ولذلك تبدو المقارنة عجيبة بين الجدة ماريا ، وحفيدها كريم ، فبينما كانت ماريا ، بركانا يفور بالمشاعر الانسانية المتناقضة ، تتصارع فى أعماقها الأهواء وأسباب الضعف والغواية ، والجشع والطمع فى الدنيا ، حتى تجاوزت كل امتحان وعبرت كل أزمة فتحطم غرورها ، وأسلمت نفسها لنور الحب والهداية ، نجد كريم قد أغلق نفسه تماما ، ومنع أية معركة داخلها ، وأعلن انه واثق تماما ، وهو صبى فى الخامسة عشرة من ايمانه الذى لايتزعزع ، وهو لايشك فى صحة موقفه ويرفض أن يناقشه أحد فيقول له : انت أخطأت ، لأنه يعلم ولأنه يدرك ، ولأن الكلمة التى يقولها فى الدين هى حكم نهائى حاسم ، ولايتردد لحظة فى أن يؤكد أن احكامه هى أحكام الله . وامام هذه الثقة بالنفس بلا حدود أصبح كريم مهيئا لأن يقتل أو يحرق أو يدمر كل مايصادفه من عقبات ، يحكم عليها بأنها عقبات فى مجتمعه ، ضد منهج الله . ونفاذ مشيئته . اما العقبات التى تكمن فى أعماق النفس فهذا أمر يجهله كريم تماما ، ولايفهمه .

ولقد شاءت الظروف أن أكون صديقا لكريم صفوان الجد ، والذى تسمى حفيده باسمه ، وقد تخرجنا فى كلية الحقوق عام ١٩٤٠ وقد اشتعلت الحرب العالمية الثانية . وفى تلك الفترة تعرف كريم على الفتاة « ماريا » وكانت تعمل بائعة فى قسم العطور بمحلات « ب » بالعتبة ، واشتغل كريم بالمحاماة فى الاسكندرية فغاب عنا بعض الوقت ، وعاد فجأة الى القاهرة وعرفت منه أنه سيتزوج تلك الفتاة الايطالية التى قابلها منذ سنوات . وعاد يحكى لى قصته معها . لم اقتنع بقراره أن يتزوجها ، واذكر انى قلت له :

ـ أنصحك ياكريم بالتروى .. أنت تصدر على نفسك حكما بالغ القسوة .. اعدل عن قرارك ..

ومازلت اذكره حتى هذه اللحظة وعيناه الصافيتان تقولان مع صوته الهادىء :

ـ ولكن ضميرى مرتاح .

رحمه الله ، توفى قبل الأوان ، كما سقط ابنه يسرى المهندس الضابط شهيدا فى حرب اكتوبر . وقد تعودت فى الماضى ان ازور الارملة ماريا فى مناسبة الذكرى السنوية لوفاة المرحوم زوجها ، أو لمواساتها فى فقدها لابنها ، وكانت لها بنتان تزوجتا .. واحدة فى بور سعيد والثانية سافرت مع زوجها ليعمل فى احدى امارات الخليج ، وكانت ماريا تتمنى لو عاش معها حفيدها كريم ، ولكن أمه أخذته معها الى الأسكندرية ليعيش بين أهلها . وانقطعت صلتى بالسيدة ماريا فى السنوات الأخيرة . والمسئول الأول عن ذلك ، تلك الأزمات الخانقة فى الاتصال والمواصلات . وتعطل التليفونات واختناق الشوارع واستحالة العثور على مكان تقف فيه السيارة ، كل ذلك كان له تأثيره المدمر على العلاقات الانسانية ، والصداقات والصلات العائلية . ولقد تقدم بى السن . فأصبحت لا أغامر بالخروج من بيتى الا فى حدود الذهاب الى مكتبى للمحاماة ، فى قضايا تحتاج الى استشارتى . اما الذهاب الى المحكمة والمرافعة فقد أصبح من مهام محامين من الشباب يعملون معى . بينما انتظر نهاية ارجو ان تكون هادئة لحياتى وسط هذا العالم الجديد الذى يتفجر بالمشاكل والأزمات ويتعامل فيه الناس مع بعضهم بعضا بأسلوب لا اكاد اتصور انه يصلح للتفاهم بين الهمج أو الوحوش ، فما بالك بالآدميين .

ولقد أدركت خطورة القضية ، عندما فوجئت بالسيدة ماريا تدخل على فى مكتبى ومعها زوج ابنتها الذى يعمل فى الخليج ويبدو أنه على ثراء ، ويتكلم بلهجة افزعتنى ، وأغضبت حماسة السيدة ماريا . فقد كان يتحدث مستريبا فى قدراتى ، مستعرضا لقدراته المالية . واستعداده لأن يحشد أحسن المحامين فى مصر ويدفع لهم اكبر الأتعاب . وقد أسكتته السيده ماريا وقالت لى ، تعتذر ، وفى عينيها ابتسامة حزينة:

- انه لايريد ان يصدق انك صديق لكريم .

وحتى هذه الكلمات الرقيقة لم يفهمها الرجل ، واسمه سعد ، ويبدو انه كان مدرسا ، ثم اشتغل بالمقاولات ، اذ سأل فى دهشة :

- صديق كريم صفوان ؟

فزجرته ماريا قائلة :

- صديق زوجى كريم .. وليس كريم حفيدى .

وضحك الرجل فى بلادة ، فكلمة صداقة لاتحمل اليه مشاعر من أى نوع ، احترام أو رهبة ، أو ثقة ، انها مجرد كلمة مظهرية لااكثر ولاأقل .

وقالت ماريا وهى تتجه الى متجاهلة وجود زوج ابنتها :

- ليس هذا هو الاسلام الذى عرفته من كريم .

قلت لها وانا اتذكر الكثير من الأحداث :

ـ اعرف .

قالت :

ـ الولد .. لم يفهم .

فسألتها :

ـ هل عرف قصة جدته ؟

قالت وهى تتنهد :

ـ ابدا .

ثم أردفت وقد التقطت انفاسها :

ـ لعل هذا هو الخطأ الذى وقعنا فيه . كان لابد من مواجهة الحقيقة .. لا أن نخفيها .. اكتفوا بأن يقولوا للأولاد .. جدتكم كانت ايطالية .. كاثوليكية .. تابعة للفاتيكان .. فى الحقيقة لم يعرفوا شيئا ..

وقطعت كلامها ونظرت الى . وشعرت انها تريد ان تقول شيئا هاما بالنسبة لها . تبحث عنه بعينيها ، بجوارحها ، تبحث عن كلمات .. ولاتجدها .

التزمت الصمت فى انتظار ان تقول شيئا . ولكن الذى تكلم هو ذلك الرجل الذى اسمه سعد . كان يسألنى اذا كان هناك احتمال لأن ندفع مبلغا من المال للمحقق أو القاضى أو أى انسان يستطيع اخراج كريم من السجن .

قلت له :

ـ هذه جريمة .. ولست محاميا من هذا النوع ..

فقاطعنى :

ـ ولكنى اسمع ..

صحت غاضبا قبل أن يكمل كلامه الأحمق :

ـ هذا مكتب محترم ياأستاذ .

واجهنى بنظراته المستريبة ، ولم يقبل عذرى بأن مكتبى محترم ، كانت كلماتى تؤكد له انى اما غبى وعجوز مخرف ، لا يصلح لمواجهة القضايا وعلاجها كما ينبغى . أو لعلى اماطل واخادع لاكسب المزيد من المال الذى سوف يدفعه هو .

وسمعت ماريا تقول :

ـ عندما اسمع مايقوله الولد .. اقول هذا جنون .. انتحار ..

كانت تتكلم بعيدا عما يفكر فيه زوج ابنتها ، تناقش خيالات فى رأسها . يبدو ان احدا لايريد أن يراها أو يعترف بها ..

ووعدتها بأن أذهب بنفسى وألتقى بكريم . وهذا هو مافعلته ، كان خائفا منى .

ينظر الى بعداء . وكانت عيناه زائغتين ، لايريد أن يرانى ، أو لعله كان لايريد ان يشغل نفسه عما يراه فى خياله . كان أشبه بالمدمن الذى لايستطيع ان يبتعد عن مصدر إدمانه ، الخمر أو المخدر أو أيا كانت مادة الادمان . كان يريد إنهاء وجودى بأسرع وقت . حتى يعود الى رفاقه ، فهو لايستطيع أن يشعر بوجوده بعيدا عنهم .

شعرت باكتئاب ، ولاشك ان العدوى قد انتقلت الى من اكتئاب يعانى منه كريم ، وخرجت الى الشارع ، ولم استطع ان اصل الى سيارتى ، رغم جنيهين دفعتهما للمنادى ، كانت صفوف السيارات تحول بينى وبين سيارتى ومشيت ، وقلت لنفسى ، لعل حركة الجسم تساعدنى على مقاومة هذا الشعور بالاحباط الذى يكتم انفاسى . وكان المشى شاقا ، كل خطوة تتحول الى عثرة فى حفرة أو كوم زبالة ، حجارة ملقاة ، ووجوه الناس مكفهرة ، يتدافعون بالمناكب فى زحام بائس ، واتوبيس يقف فى منتصف الطريق فتنشب معركة بين موجة الصاعدين وموجة الهابطين ، ولاعقل ولافهم ، وموجة عارمة لاعقل لها تواجه موجة عارمة لاعقل لها ولا أحد يعطى أحدا فرصة لان يتحرك فى هذا الاتجاه او ذاك الاتجاه ، لا احد ينتظر ولا أحد يثق ، فالانتظار لاطائل وراءه ، والثقة ليس لها محل ولامبرر ..

وشعرت بدوران فى رأسى ، وبدا لى ان كل شىء عبث ، ولا أمل فى التفاهم مع بشر هذا هو حالهم . غرائز مندفعة عمياء ليس للعقل وظيفة عندها ، ومع ذلك قلت لنفسى ، هؤلاء يندفعون وراء صيحة تدعو للاسلام كما لو كانوا يندفعون الى هذا الاتوبيس المزدحم ، لم يعد الأمر يعنى عندهم اكثر من هذا الاندفاع خروجا من مأزق ، او على أمل الخروج منه ، للدخول فى مأزق على ظن أنه خلاص منه ، لم تعد الحياة تعنى زوجا وأسرة وأولادا وأحفادا ، لم تعد الحياة عواطف وحبا وضعفا بشريا ، وارتكاب ذنوب وندما ومغفرة وتوبة ورغبة وأملا . أصبحت مجرد اندفاع لتحطيم كل شىء واقتحام أى شىء لأن كل شىء شرير ، رغبة فى سحق ماهو قائم ، لأن كل ماهو قائم كفر وفسوق . رغبة فى اشعال حريق لان مافى النفس غضب أعنف من الحريق . من الفساد والظلم والجهل ، تواجهه ردود فعل عدوانية شرسة تكره كل ماحولها تندفع فى مغامرة انتحار جماعى ، وسط هذه الانقاض من حولنا التى لايصدق احد أنها أنقاض بناء .

كان من المستحيل أن أتولى القضية ، والمتهم فيها يرفض أن يثق في ، وعدت الى الجدة ماريا ، وذهبت اليها فى بيتها فى الزمالك ، اعتذر لها . وأنا أعلم أن هذا الاعتذار سيفرح به زوج ابنتها ، الذى يريد أن يتحرك وينجز عملا مفيدا ، كأن يتعامل مع محام قادر على أن يرشو أية سلطة للافراج عن كريم .

قالت ماريا فى هدوء :
ـ لقد فكرت طويلا .. وانتهيت الى رأى ..
ومدت يدها الى منضدة بجوارها ، وأمسكت بكراسة كبيرة لها غلاف من الجلد الأسود وقالت :
ـ هذه مذكراتي .. وأنا اعترف انك تجيد الايطالية .. اقرأها .. واكتبها باللغة العربية .. وارسلها الى كريم ، قلت لها وانا يائس من هذه النظرة الرومانتيكية للأمور :
ـ أخشى .. ان يكون عقله قد تسمم .. ولم يعد صالحا للفهم .. قالت :
ـ لابد ان نحاول ..
قلت لأكون أمينا معها الى أقصى حد :
ـ الناس لم تعد تهتم بالفهم .. ليس لديهم مايدعوهم لأن يتعارفوا ويتقاربوا .. على غير مايعاونهم على مجرد بقائهم كحيوانات .. وفيما عدا ذلك كل شيء يدوسونه تحت الاقدام .. بلا تردد .. بلا أدنى فهم لقيمة مايدوسون .. وكريم يريد أن ينتحر وهو يدمر هذا المجتمع ، لكنه ضحية له .. وهو مظهر من مظاهر أزمته .. رغم انه يتوهم أنه يحمل العلاج الشافى من كل داء .
قالت ماريا فى هدوء وإصرار عجيبين :
ـ هذا هو أوان أن نقول الحقيقة .. ما الاسلام الا طاقة نجاة تفتحت للبشر فى لحظة ضيق ،
وربتت بيدها على الكراسة وقالت :
اكتب حكايتى « من البداية » بكل مافيها . بلاخجل ولا مواربة . سوف تجد أسرارا لم تتوقعها ، وأزمات تقضى على أية بنت كانت فى نفس ظروفى ، ولم اتغلب على ذلك ، الا لأنى عرفت طريقى . واذا كان هناك شيء عرفت قيمته من كاثوليكيتى ، فهو القدرة على الاعتراف وتقبل المغفرة . كمسيحية كاثوليكية اعترف على كرسى الاعتراف ، ولم تتغير مشاعرى الكاثوليكية عندما تزوجت كريم لأن الدين واحد والرب واحد ، ولاأريد الآن الاعتراف فى الكنيسة على كرسى الاعتراف بل الاعتراف الى البشر .. كل البشر .. لنواجه انفسنا ، كمسيحيين أو مسلمين ، فالدين ليس مخبأً نهرب فيه ، ولا دعوة للكتمان وعدم المصارحة ، وليس فترينات للدعاية ولاشيء بعد ذلك .

وضحكت ماريا فجأة وقالت بصوت عذب :
ـ اتعلم ان أول كلمة تبادلتها مع زوجى كريم .. قلت له غاضبة : لماذا تنظر الى هكذا .. هل أنا فترينة ؟
تذكرت فجأة أنى سمعت عن هذا اللقاء ، وشعرت فى أعماقى بدوار وانا انتقل

عبر السنين . لولا انها أخرجتني من رحلتي مع الزمن . وهي تقول لي :
ـ إني قرأت القرآن .. وصدقني .. إني لم أفهم مسيحيتي حتى عرفت الاسلام .. ومسيحيتي جزء من نفسي ، ولما تزوجت خارج الكنيسة واجهت مصيري وحدي أمام ربي . ولكن هذه المواجهة لم تكن ممكنة وأنا وحدي تماما ، واننا نكون وحدنا ولكن ضميرنا يبقى معنا ، ولقد كان ضميري يرتاح الى صوت انسان اهتم بي . وأراد صادقا ان يساعدني ، وشعرت أن قلبه ينبض بعاطفة نحوى . وهو يستمع الى مشاكلي ، واحكي له عن ضعفي . وهذا الانسان هو كريم . ولاأدري كيف .. كيف ؟..

وكادت العبرات تخنقها ، حتى تغلبت عليها وهي تقول بصوت غلبه الانفعال :
ـ كيف يساعدني كريم زوجي على ان أفهم الاسلام وأحبه . فيأتي كريم حفيدى ليقيم بيني وبينه حاجزا .. لاأدري كيف أعبر عنه ..

قلت وأنا أقاوم دموعا توشك أن تغرورق بها عيناى :
ـ لاتحزني ..
تقاطعني وهي تغالب انفعالاتها :
ـ المهم ان تنقل هذه الرسالة الى كريم .. وكل من يتصرف مثله ..

وحملت معي الكراسة الى بيتي .. وقضيت ليلى ساهرا .. اقرأ .. وأقرأ .. حتى الفجر .

وهاأنذا اذيع قصة ماقرأته ، لعل كريم يقرؤه . فقد رفض مقابلتي ، ولما أرسلت له اوراق هذه القصة ، رفضوا في السجن إدخالها اليه ، وبعد محاولات شتى ، استطعت اقناعهم بتقديم الأوراق الى كريم ، ولكنه اعادها ولم يقرأها . وكنت اتمنى ان يدرك على الأقل ، بعد قراءة الأوراق اهمية الصراع في اعماق النفس البشرية ويدرك أن النفس التي لاتعرف هذا الصراع ولاتفهمه هي نفس استولى عليها الشيطان . وانطلق بصاحبها يحارب في كل مكان ، ولاحاجة للشيطان أن يهمس بهواجسه ، او يبث غواياته لواحد من جنوده قد استسلم له ، ولذلك لايعاني جنود ابليس من الصراع فتراهم واثقين متبلدين لايعرفون التردد ، ولامراجعة الضمير . اما الذين يسلكون طريق الايمان فابليس يتعقبهم أينما كانوا . ويلاحقهم بغواياته ويجعل من حياتهم صراعا مستمرا بين الخير والشر . والقوة والضعف وهذا هو مافهمته ماريا . ومالم يفهمه حفيدها كريم .

وعلى أية حال ليس في حكاية ماريا معجزة ، أو حدث خارق ، والذى سوف أحكيه قد يحدث لأية فتاة اخرى أجمل من ماريا ، او أقل جمالا منها ، وهذا في احد معانيه معجزة القصة أو سر روعتها كما شعرت ـ وأنا أكتبها وأعيد صياغتها .

وكما يقولون ، يضع الله سره فى أضعف خلقه ، ولنا أن نقول أيضا إن الله يضع أعمق المعانى فى تصرفات الناس العادية ، بل ماقد يبدو انها تصرفات سطحية .

ولايهم أن ماريا كاثوليكية . فليس الذى يشغلنا اختلاف الاديان . ولم تكن ماريا متدينة ، أو تعرف الكاثوليكية على حقيقتها . ولكن كان ايمانها بمثابة قوة ابصار هائلة لقدرة الله الواحد .

ولسوف نترك قضية الدين عند هذا الحد لنعود اليها فيما بعد ، لنحكى قصة ماريا ، ونبدأها عندما كانت فى الثلاثينيات ، قبل الحرب العالمية الثانية ، واحدة من أجمل بنات العائلات الايطالية واليونانية فى شبرا .

وكان معظم افراد تلك العائلات من الحرفيين ، بعضهم كان يعمل بالفنادق أو المطاعم كرؤساء خدم أو سعاة أو طهاة . وبعضهم كان يعمل فى ورش صيانة السيارات ، أو دكاكين بيع الاجهزة الكهربائية ، وكان بينهم من يعمل فى تفصيل بدل الرجال أو أزياء النساء . وكان بينهم بنات كثيرات يعملن بائعات فى المحلات الكبرى ، أو صالونات التجميل . وكان المصريون فى تلك الايام لم يعرفوا بعد تلك الحرف . وكانت النساء فى المدينة لم يخرجن للعمل بعد ، الا فى أضيق الحدود . وبينما كان اولاد الفلاح المصرى يتجهون الى وظائف الحكومة ، كمدخل الى عالم السلطة والنفوذ كان لبعض افراد الجالية الايطالية وسائلهم الخاصة للوصول الى مصدر السلطة فى مصر عن طريق العمل فى القصور الملكية فكان بينهم سائقون وميكانيكيون وطهاة اتصلوا بالملك ، وبالأميرات وأصبحت لهم كلمة ونفوذ فى البلاد . اما السنيور « اميليو ساندرو » والد ماريا فهو واحد من المحظوظين فقد كان حلاق الأسرة المالكة ، يتحكم فى رءوس الاميرات والوصيفات ، ويتولى تلك المهمة الخطيرة ، مهمة تصفيف وقص الشعر على أحدث الطرق المبتكرة فى أوربا . وكان من الطبيعى أن تتنافس سيدات المجتمع المصرى الراقى على الوصول الى « ساندرو » اسوة بالأميرات فكانت السعيدة هى تلك التى يبتسم لها الحظ ، فيقبل ساندرو ان يتولى بنفسه تسريح شعرها وكان هذا من الأمور المستحيلة فى أيام الحفلات الكبرى عندما يتفرغ ساندرو للعناية بالرءوس الملكية فقط .

كان اميليو ساندرو فى الخمسين من عمره وسيما ، شعره اسود ، بشرته خمرية ، متوسط القامة ، عيناه سوداوان جذابتان ، وكان حديث البلاط ذلك الصراع الذى ينشب ويتفجر - بين مناسبة واخرى - بين وصيفة ذات حظوة عند الملك واميرة متعجرفة عجوز ، ارادت كل واحدة ان تستولى على « اميليو » وتعتبره من ممتلكاتها الخاصة . وكانت الالسنة تلوك مثل هذه القصص على انها

اخبار يومية عادية لاترتفع الى مستوى الفضائح المثيرة التى تنشب بسببها أعنف الأزمات فما قيمة هذا الحلاق الايطالى « ساندرو » فى نظر سيدات الطبقة الارستقراطية ، أنه أشبه بكلب تعويذة ، أو فرس للركوب ، أو ببغاء له بعض المميزات تتنافس عليه كل من تريد اقتناءه ولو لبعض الوقت ، ولكنه فى نهاية الامر ليس اكثر من كلب أو حلاق .

واذا كانت ماريا لم تذكر أباها بسوء فى مذكراتها فإن مافعله الأب بابنته والأحداث التى اعترفت هى بها ، دفعتنى الى أن اصف الرجل بأنه كلب . وقد يكون هذا الوصف لايتفق مع أدب الكتابة ، الذى يتطلب الحيدة من الكاتب فيما يستعرضه من احداث ، فلعلى استطيع ان أكبت مشاعرى الخاصة وأفسح المجال للأحداث كما قرأتها فى مذكرة ماريا ، أو كما اتذكرها من معرفتى الشخصية بزوجها كريم صفوان فى تلك الايام من تاريخ مصر ، التى كان فيها « ساندرو » حلاق السيدات الايطالى يرى فى اقبال السيدات عليه بابا مفتوحا على مصراعيه للثراء والنفوذ ولايرى فيما يحدث بينه وبين أية سيدة تطلب خضوعه لرغباتها أكثر من عمل يؤديه ، لا صلة له بالعواطف ولا الأخلاق وليس فيه مايبرر ان يشعر بالخجل أو الذنب أو الندم

حتى دفع بابنته فى نفس الطريق ، فشعرت بالخجل والذنب والندم .

الفصل الثانى

كانت السنيورة ماتيلدا زوجة الحلاق اميليو ساندرو ، لا ترى فى علاقة زوجها بالأميرة « هـ » أو السيدة « م » ما يدعو إلى استثارة غيرتها أو غضبها ، رغم أنها كاثوليكية متدينة ، تذهب إلى « سانت تيريز » كل صباح ، وتصطحب معها أبنتها ماريا ، وتعترفان للأب « لورنزو » مرة كل أسبوع .

إن الهوة السحيقة التى تفصل بين أسرة ساندرو فى شبرا ، ومجتمع الاميرات والقصور والسرايات ، تنـزع عـن الـقيم الأخلاقية دلالتها ومغزاها ، فمهما حدث يظل الخادم خادما ، والأميرة أميرة ، وما يرضخ له ساندرو ، يختلف فى معناه وأهميته ، عن علاقة بين ندين ، أمير وأميرة أو خادم وخادمة . فقواعد السلوك والأخلاق لا تعبر حدود وحواجز الطبقات . والفضيحة لا تكون إلا بين الانداد ، والغيرة والحسد لايكشفان عن وجودهما الا بين المنتمين الى طبقة واحدة ، فلا يحسد المال الا أصحابه ، وليس مثل الغيرة بين صديقتين أو حتى شقيقتين ، اما اذا اختلفت الطبقة ، واتسعت الفجوة بين طبقتين ، فالعزلة تكون كاملة ، والتفاهم ينقطع ، حتى لو بدا أن هناك اتصالا ، لانه اتصال تفرضه الأوامر الصادرة من سيد الى مسود ، ومن صاحب أمر ونهى إلى تابع ومطيع . وليس معنى هذا أن السنيورة ماتيلدا كانت تشعر بأنها تنتمى الى مجتمع عبيد ، فهى زوجة رجل مرموق بين صديقاتها ومعارفها وجيرانها فى شبرا . وكانت تسكن فوقها « الزا » زوجة اورلاندو العجوز رئيس الخدم فى نادى الجعران الذهبى بالهرم ، وكان يتولى بنفسه خدمة الملك عندما يتردد على النادى ، وكان قلبه مرهقا ، وعندما يعود فى الساعات الأولى من الصباح يصعد السلم الى الطابق الرابع ، فإذا ما وصل الى الطابق الثالث ، الذى تسكن فيه عائلة ساندرو ، يكون قد انهار ، والعرق يتصبب منه ، ويبلل بدلته السوداء ، ويشق صوته سكون الليل زاعقا « الزا » « الزا » فتهبط إليه زوجته ، تساعده على صعود بقية الدرجات أحيانا كانت تخرج إليه ماريا لتساعده ، وتدهش لهذا الجسد المتهالك ، عكس ماتراه ساعة العصر ، وهو يهبط وقوراً باسما كأنه قائد حربى مهيب .

مات أورلاندو فجر يوم . ونظرت السنيورة ماتيلدا الى المرآة ، فرأت جسما

بدينا مترهلا ، وقالت لنفسها أن « الزا » أصبحت أرملة ، وهى امرأة خطرة ، لن تتورع عن ارتكاب أى شىء ، وخافت على ساندرو منها .

وسمعت ماريا اباها يصيح ساخرا فى أمها .

ـ انا اميليو ساندرو .. اميرات وأجمل نساء البلد .. بين يدى كل يوم .. اهتم بالزا ..

وصاحت ماتيلدا

ـ نعم .. فالخطر لا يأتى الا من أمثالها .

كانت ماتيلدا تحدد العالم بشبرا . كنيسة سانت تيريز ، والنادى الايطالى بحدائقه الواسعة ، والمراجيح تركبها ماريا بينما كوستا اليونانى ، وزوجته نينا اللذان يسكنان فى النافذة المواجهة لحجرة ماريا ، يتحدثان مع ماتيلدا ويشربان البيرة يوم الأحد ، فى انتظار عودة اميليو من موعد عند اميرة طلبته على عجل ، وكان كوستا يقوم بين وقت وآخر بدفع مقعد ماريا على الارجوحة فتصرخ سعيدة ، حتى تحمر وجنتاها ، وتطلب الى كوستا أن يوقف الأرجوحة ، فيدفع مقعدها اكثر وأكثر ، وتطير فى الهواء ، ويرفع الهواء فستانها فيعريها ، وتشعر بالهواء يجتاحها بقسوة لاتخلو من نشوة . وكان الفريدو ابن ماركو الميكانيكى هو المرشح فى نظر السنيورة ماتيلدا للزواج من ماريا . فأبوه صاحب ورشة سيارات تدر عليه ذهبا ، وله فيللا فى نهاية الشارع لها حديقة فيها تماثيل من المرمر ، ولن يذهب الولد يوما ما إلى ايطاليا ، ولن يضيع كما ضاع ماريو شقيق ماريا ضحية لاحلام زوجها عن العظمة والمجد ، إذ كان اميليو يرى فى الدوتشى مثلا أعلى لمجد روما ولمجده شخصيا ، وكان واثقا فى قرارة نفسه ، أنه فى يوم قريب سوف يدخل الدوتشى مصر غازيا راكبا حصانه الأبيض ، ليحكم مصر كما حكمها يوليوس قيصر أمام كيلوباترة . فإذا كان اليوم هو الحلاق فى بلاط الأسرة المالكة ، فغدا سيكون هو ممثل موسولينى ، الدوتشى العظيم ، فى بلاط اصبحت فيه اميرات اليوم جاريات للسيد الرومانى الجديد . إنه اليوم الخادم ، ولكنه غدا السيد . ولقد دفع الثمن غاليا ومقدما من اجل مجد روما ومجد الدوتشى ، فدفع ولده ماريو للسفر إلى روما والانضمام الى القمصان السوداء ، ثم سافر ماريو الى الحبشة جنديا فى جيش الدوتشى ، وهناك لقى مصرعه . فكان ذلك أول شرخ فى بناء المجد والعظمة الذى حاول اميليو أن يقنع به زوجته ماتيلدا ، وهى الآن تفر من احلام المجد ، وتكتفى بمملكتها فى شبرا ، فشوارع شبرا عرفت ماريو يرتدى قميصه الأسود ويركب « موتوسيكلا » يطقطق ويطرقع ويتفجر حيوية وشبابا ، أما مجد الدوتشى ، فقد حول ماريو الى اسطورة ، وروح ترفرف حول موسولينى ، ولكنها تجلب احزانا لاتنتهى ترفرف حول ماتيلدا . وكان

لايضايقها شيء مثل تمسك ساندرو بحماس مصطنع . بأنه فخور ببطولة ماريو . وكانت تلوم زوجها . وتتهمه بأنه فرط فى ماريو ، إذ سمح له بالسفر ، وكانت حماقة لاتغتفر منه ، إذ تخلى عن ابنه ، ليموت فى بلاد نائية يسكنها همج يحاربون بالسيف والخنجر ، ويعلم الله وحده ، ماذا فعلوا بابنها ماريو حتى مات . وماذا فعلوا بجثته التى لم يعثروا عليها كاملة .

ولكن ساندرو كان حزينا هو الآخر على فقد ابنه ، ولكنه كان مازال يثق فى طريق المجد ، كما أن التباهى ببطولة ماريو كان يخفف من أحزانه ، وساعده على الهرب من لوم زوجته له ، لأنه لم يحتفظ بماريو فى مصر ، وكان من السهل عليه أن يحصل له على الجنسية المصرية من السراى ، ويضمن حياة كريمة لابنها .

كانت ماريا تسمع أمها تلوم اباها ، فتتألم لما تسمعه ، وتشارك أمها فى اللوم أحيانا ، وتثور عليها أحيانا ، ولاتخرج مظاهر ثورتها عن حدة فى الكلام ولهجة عصبية تبدر منها ، وكانت تحرص على أن تعترف بأنها اخطأت للأب لورنزو ، وتطلب إليه أن يصلى من أجل أن يغفر لها ما شعرت به نحو أمها . وكانت المخاوف تحاصر ماريا عندما يثور الجدل بين أبويها عن مصيرها ، فهى بنت وحيدة ، فى السابعة عشرة ، اكتملت انوثتها ، ولكنها كانت تشعر فى نفس الوقت بغيرة تكتمها ، وتخجل منها ، لاهتمام والديها بذكرى ماريو ، اكثر من اهتمامها بها ، أو هكذا كان يبدو الأمر لها ، وكانت تحاول طرد مشاعر هذه الغيرة المشينة ، باظهار الحزن ، والبكاء الذى ينتابها فجأة بين وقت وآخر . فى البيت ، أو بمناسبة مشهد للجنود فى فيلم ، تشاهده فى السينما مع كوستا وزوجته نينا . ولكن سرعان ماتنسى كل شيء ، عندما يتهامس كوستا مع زوجته ، بالعربية ، لأنها لاتعرف اليونانية ، وهو لايعرف الايطالية ، وكلاهما كما تقول أمها غبى . لن يتعلم لغة الآخر ابدا .

وكانت ماريا تتأمل وجهها المستدير وشعرها الكستنائى وعينيها السوداوين تضيفان الى جمال عينى أبيها ، أنوثة يعترف بها الجميع ، كوستا يقول لأمها : هذه « الكوكلا » العروسة سوف تكسب أية مباراة لانتخاب ملكة جمال . والفريدو يجد مشقة فى ان يرقص معها اكثر من مرة فى حفلات النادى التى تقام مرة كل شهر . ولولا أن الأولاد والبنات يلتقون تحت أنظار الآباء والأمهات ، ويلاحقهم الاعتراف فى الكنيسة ، ومتابعة سانت تيريز لسلوكهم ، وتدخلها بين الحين والحين لتلبية دعواتهم ، لأطلقت العنان لكثير من الخيالات التى تراودها ولكنها تكبتها .

وكانت خيالات بعيدة عن شبرا ، خارج نطاق الشارع الكبير الذى يشقه الترام . الذى تركبه احيانا مع ابيها ، عندما يصحبها معه الى بعض زبائنه .

وكان اكثر هؤلاء الزبائن اثارة لخيالاتها الجامحة هو قصر الشيفالييه برتولدى ، القاضى بالمحاكم المختلطة والذى يسكن فى مواجهة كنيسة سانت جوزيف فى قلب القاهرة .

انها عندما تفكر فى المال والمجوهرات ، والسيارات واليخوت ـ وتحلم بخواطر ومشاعر غامضة تكمن وتتربص داخلها ، وتنتعش عند زيارتها لقصر برتولدى ـ تجد صعوبة فى المقاومة ، فى محاولة تأجيل مواجهة من نوع لاتدرك كنهه ، وتتمنى لو تظل خواطرها الغامضة غامضة ، رغم انها ترتجف بنشوة ورهبة وهى تمشى بجوار ابيها الذى يحمل حقيبة ادواته فى يده ، يخترقان ممر الحديقة بأشجارها المقصوصة ذات الأزهار الحمراء والبنفسجية والصفراء معلنة مقدم الربيع . انها لاتنسى ابدا وجه ذلك الرجل ذى اللحية المدببة ، على عينه « مونو » ، وفوق رأسه قبعة من القش ، يرتدى « جاكت أزرق » على بنطلون أبيض ، وهو خارج من باب البهو ذى الحديد المشغول على بللور ، فى اعلى درج رخامى ، صعدت اليه سيارة سوداء كبيرة .

وساندرو الحلاق . ابوها ، يهمس بانفعال :

ـ هاهو الشيفالييه .. إنه خارج .

وأمسك بيدها بعد أن نقل حقيبة ادواته الى يده اليسرى ، وجذبها وهو يهرول هامسا .

ـ اسرعى .. أريد أن اقدمك له .

كان الممشى طويلا ، وهى تلهث ، والسيارة السوداء تنحدر نحوهما . نحو الحلاق ساندرو ، نحو ابيها ، نحو بابا .. الذى وقف عند حافة الممشى ، وأصابعه تضغط على يدها فتؤلمها ، خلفهما حوض زهور ، منعهما من التراجع اكثر ، ليفسحا الطريق امام السيارة التى تقترب منهما ، وساندرو ، الحلاق ، ابوها ، بابا ، ينحنى امامه ، للممشى ، للزهور ، للأشجار ، والسيارة تمرق ، وحش يمرق ، والرجل صاحب الذقن المدببة ، والقبعة المستديرة من القش ، لايلتفت اليهما . وسائق السيارة فى مقعده الأمامى ، لايلتفت اليهما ، وتبتعد السيارة ، ويرفع بابا رأسه ، ويهمس وعيناه حزينتان .

ـ إنه لم يرنا .

ويخاطب نفسه ، وتسمعه ماريا .

ـ لو رآنا لأمر السائق بالوقوف .. السنيور برتولدى نبيل ... يتصرف كالنبلاء .

كانت يده باردة ندية ، تتشبث بيدها ، ولكنه انتبه فجأة الى يده ، فجذبها بسرعة ، لعلها ضغطت على يده ، فرفض أن يعترف بحاجته الى حنانها . سحب يده بسرعة وانطلق يصعد الدرج الرخامى . وظهر خادم نوبى فطلب إليه أن يخبر

السنيورة برتولدى . بأن الحلاق قد حضر .
واستقبلتهما السنيورة فى حمام كبير ملحق بحجرة نومها كان الحمام اكبر من حجرة النوم ، فيه حوض للاستحمام ، وفى ركن بجوار نافذة كبيرة تطل على الحديقة ، دش تحته حوض من القيشانى ، وعلى يمين الباب المفضى إلى حجرة النوم مرآة كبيرة بعرض الحائط بجوارها اريكة جلدية ، وسيشوار ، ومنضدة عليها مجلات ، ومقعد للحلاقة ، وفى ركن الحجرة دولاب كبير به ارفف عليها زجاجات شراب .
كانت السنيورة برتولدى فى الخمسين ، ربما اكثر قليلا ، وكانت نحيفة طويلة ، شعرها فضى ناعم ، وكانت صامتة ، وضعت زجاجة ويسكى على تسريحة تحت المرآة ، وبجوارها إناء فضى به قطع ثلج ، وأعد لها ساندرو شرابها ، وأعد لنفسه كأسا ، ولم تلتفت السنيورة الى ماريا ، كانت مشغولة بتأمل وجهها فى المرآة ، تفحص كل ذرة ، كل شعرة من شعرات الرأس ، وترشف من كأسها ، وماريا مشغولة بتلبية طلبات ساندرو ، الذى وقف على رأس السنيورة كجراح يجرى عملية جراحية ، يطلب من الممرضة بجواره ان تقدم له المشارط والمناشف ، وكانت عينا ساندرو لاتقتصر على متابعة اصابعه تعمل فى شعر السنيورة ، كان يرقب مطفأة السجاير ، يطلب من ماريا أن تفرغها ، أن تقربها من يد السنيورة ، أن تجفف مكان كأس السنيورة ، ان تبعد السيشوار قليلا ، أن تعد منشفة ساخنة ، وفى هذه الاثناء ، يفرغ كأس السنيورة ويملؤه ساندرو . الذى اكتفى بكأسه الأول ، أخذ منه رشفة واحدة ، ثم انصرف الى عمله وثرثرته ، التى تحولت فجأة الى حديث عن ماريا . كان يتحدث عنها كما لو كان بائعا متجولا يبيع خردوات ، صابون وأمشاط وأمواس حلاقة ومعجون اسنان . وكانت السنيورة غير مهتمه كثيرا بالبضاعة المعروضة . لم تر ماريا فى عينيها اهتماما مثل ذلك الذى تراه فى عينى كوستا أو زوجته نينا ، أو الأرملة الزا ، أو الفريدو .. انها هنا ليست ملكة جمال ، ولا أى شىء ، هكذا تقول لها عينا السنيورة ، ولكنها فجأة سألت ساندرو ، ولعلها كانت قد انتعشت بما شربته ، فأرادت الحديث :

- وهل سوف تستمر فى العمل معك .

سألته ، دون أن تلتفت الى ماريا .
وأجاب ساندرو باقتضاب كأنه لايتوقع ان تتدخل فى ثرثرته .

- مؤقتا .

قالت وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة . أو لعل هذا هو ماشعرت به ماريا :

- وبعد ذلك .

قال ساندرو :

- تتزوج .
ودق قلب ماريا بشدة ، وغضب ، احتجاجا على فتح هذا الموضوع الخاص جدا ، الذى يمس مشاعرها . وأحلامها ، ويمس جسدها وحواسها ، مع هذه المرأة المتعالية ، التى التفتت اليها الآن لأول مرة ، ترقبها فى المرآة ، وألتقت عيونهما معكوسة فى المرآة ، عينا السنيورة باردتان ، اشاحت بوجهها ، وقالت تخاطب ساندرو بلهجة يغلب عليها السأم :
- الزواج فى مصر صعب جدا .. أغلب الشبان سافروا
قال ساندرو فى حماس :
- ارجو ان يعودوا سريعا ..
نظرت اليه السنيورة ببرود وقالت ساخرة .
- انت متفائل .
قال ساندرو بصوت يحاول ان يكبت انفعاله :
- نعم ياسيدتى ..
ثم أردف بسرعة :
- ولكنى افكر ايضا فى ان اقضى الصيف فى ايطاليا .
ودهشت ماريا . كانت تسمع الخبر لأول مرة ، وخطر لها أن اباها يكذب على السنيورة لسبب ما .
وقالت السنيورة برتولدى :
- الأحوال فى ايطاليا صعبة جدا ..
قال ساندرو وبسرعة ، كأنه يعلم أن أية شبهة معارضة لرأيها ستجلب عليه الكوارث :
- نعم ياسيدتى .
كان يكذب بكل تأكيد ، فهو قاشستى متحمس ، ولكنه عاجز تماما عن معارضة السيدة برتولدى ، انه ينافقها ، يسترضيها :
قالت السنيورة :
- تونى يريد أن يسافر .. ولكنى منعته .
قال ساندرو
- حسنا فعلت ياسيدتى ..
لم يقل لها أنه ارسل ماريو ليموت بطلا من أجل روما والدوتشى . لم يقل لها أنه يفخر بالوسام الذى حصل عليه ماريو للمناسبة السعيدة . مناسبة استشهاده فى سبيل مجد الوطن . لايجرؤ أن يقول لها مايقوله فى البيت فى شبرا . امام ماركو وكوستا ، وامام اصحابه فى الكنيسة أو فى النادى عندما يلتقى بهم يوم الأحد . إنه لايقول أمام السنيورة برتولدى ، مالا يخشى أن يقوله امام سانت

تيريز . وأمام الأميرات وزبائنه من سيدات المجتمع المصرى . فجأة سمعت ماريا اباها يقول بصوت حزين ، كما لو كان يسمع ماتهمس به خواطرها :

ـ لو كنت فعلت ومنعت ماريو . لكان الآن معى .

قالت السنيورة :

ـ الشيفالييه يتوقع ان يذهب أولاد أوربا كلهم الى الحرب .. وهذا مخيف .. مخيف جدا .. ونظرت الى وجهها فى المرآة .. وافرغت جرعة من كأسها فى جوفها . وعادت الى صمتها . ولكنها قطعته فجأة ، وقالت تكمل حوارا دار فى رأسها اثناء فترة الصمت .

ـ تونى يقضى ايامه مع البنات .. لايريد أن يتزوج .. ولا أن تكون له عائلة .. الولد يشعر .. ان نهاية كل شىء تقترب .. لن تكون الدنيا مثلما هى عليه الآن .. قال ساندرو فى محاولة للكشف عن موقفه .

ـ ارجو ان تكون أحسن .

لم تلتفت السنيورة الى كلماته ، وقالت له بلهجة غريبة .. لعلها افرطت فى الشراب .

ـ احذر أن يرى تونى ابنتك ..

وضحكت ضحكة غريبة ، عالية فاجرة ، وهى تقول :

ـ لست مسئولة عما قد يحدث .

صعد الدم الى وجه ماريا . كان الحديث عنها مهينا جارحا . المرأة تتكلم كما لو كانت تجلس على منصة عالية ، تنظر اليها والى ابيها كمخلوقات دنيا ، تستطيع ان تتحكم فيها كما تشاء ، كان عليها ان تبتلع الاهانات كما تبتلع تلك المرأة الويسكى ، ولاتدرى كيف استطاعت أن تصمد حتى خرجت من حمام السنيورة ، لتواجه اهانة اكبر تنتظرها . فقد رأت شابا يرتدى قميصا ابيض فوق شورت كاكى فى يده بندقية صيد ، خارجا من احدى الحجرات ، يعبر البهو فى طريقه الى حجرة كبيرة بابها مفتوح ، تظهر داخلها مكتبة ضخمة من الخشب الماهوجنى نظر اليها الشاب نظرة واحدة ، ومضى فى سبيله ، بعد أن صاح بلهجة سريعة :

ـ بونجورنو ساندرو ..

لم يعط فرصة لأن يسمع رد أبيه ، ولافرصة لأن يقدمها له . هذا هو تونى . رآها وكأنه لم يرها .

سألت أباها وهما خارجان :

ـ لماذا جئت بى الى هنا يا أبى .

قال لها والغضب فى صوته :

ـ يجب ان تعرفى العالم ، وما رأيته اليوم .. ليس كل شىء . أمامك الكثير لتفهمى الدنيا ..

ورضيت بإجابته ، دون أن تقتنع بها ، كما رضيت بحياتها ، كما رضيت بشبرا . وارجوحة النادى ، والسينما مع كوستا ونينا ، وأحيانا السنيورة الزا . كما رضيت بالرقص فى حفلات النادى . كما رضيت بأن تذهب الى الكنيسة ، وتدق الجرس فى كرسى الاعتراف ، فيضىء المصباح ، ويأتى الأب وتعترف له . من وراء الخشب المشغول بثقوبه التى تحول دون رؤية الأب بوضوح فيتحول الى قوة هائلة تنصت اليها ، ثم تمنحها الغفران .

اعترفت بأنها غضبت من أبيها لأنه يكذب ، وغضبت من نفسها ، لأنها تمنت لو وقف تونى وحدثها ، ولأنها كانت تحلم وهى فى النادى ، تدفعها يد كوستا فوق مقعد الأرجوحة ، لو كانت يد تونى هى التى تدفعها .

ورغم الاعتراف ، والصلاة ، والغفران ، ظلت خيالات المال والمجوهرات والسيارات واليخوت ، تزورها ، ومعها صورة تونى برتولدى ، المنقذ أو المخلص . الذى لاتصل اليه ابدا . رغم انها عاودت زيارة القصر مع ابيها ، وعاودت مواجهة الاهانات التى تلاحقها من السنيورة برتولدى . أما تونى فظل حاضرا غائبا . اذا رأته ، فكأنه لم يرها ، وتتمنى لو لم تواجه هذه الاهانة ، لتعود وتعترف وتطلب الغفران .

وحدث ذات يوم أن قال ساندرو لاحدى الاميرات وهو يصفف شعرها :

ـ ياصاحبة السمو أن فتاة جارة لنا ، سافرت الى فرنسا ، وأصبحت هناك نجمة فى باريس .. انها روزينا جارتنا فى شبرا .. ولست أصدق أنها تنجح كل هذا النجاح مع أن ابنتى ماريا أجمل منها ألف مرة .

فقالت الأميرة ساخرة :

ـ أنت أخطأت جهة الاختصاص التى تخاطبها فى هذا الشأن .. ان الملك لديه ادارة كبيرة مختصة بشئون البنات الجميلات سواء المغنيات أو الراقصات أو غيرهن ..

الفصل الثالث

ظلت كلمات الأميرة تدوى فى رأس ساندرو ، وجعل يقلبها ويتابع بخياله معانى الكلمات ودلالاتها وهو يفكر فى اساليب أفراد جاليته فى الوصول إلى الملك والدخول فى حاشيته . فها هو بترو أصبح نديما لصاحب الجلالة لايفارقه فى سهراته بعد أن كان سائقا لسيارات السباق الملكية من طراز « ميزيراتــى » و« فيرارى » و « لومبورجينى » .. والسنيورة ماتيلدا تذكر أيام طفولتها فى الأزاريطة بالاسكندرية ، حيث ولدت وكان بترو يلعب معها فى سطوح العمارة هو وشقيقاته ، وتقول إن شقيقات بترو فتحن له الطريق إلى الملك . حتى أصبح ذا حظوة ونفوذ يتراجع أمامه رؤساء وزارات ، ورؤساء عائلات مصرية ، ويتملقه كبار الموظفين . والحظ يبتسم للجميلات ، ولقد صدقت الأميرة ، فرجال الملك يتابعون أخبار البنات الجميلات ، وما أن تظهر فتاة جديدة ، تغنى أو ترقص فى أحد النوادى الليلية حتى تكون صورها أمام الملك ، فاذا أعجبته أصبحت الفتاة ولفترة طويلة صاحبة كلمة فى البلاط الملكى ، ويفتح لها أرصدة فى البنوك ، وينتهى أمرها مثل شقيقات بترو الى الزواج من رجال أعمال أثرياء ايطاليين أو يونانيين أو يهود . يريدون توثيق صلاتهم بالسراى لحماية استثماراتهم التجارية والصناعية .

إن ماريا الجميلة تستحق اكثر من هذا ولسوف تكون لها ثروة هائلة وحماية كاملة وتأمين لمستقبلها ولسوف يرتفع شأنها فى سماء البلاط ، ومن يدرى فقد تصبح مدام بومبادور مصر مثلما كانت مدام بومبادور تحكم فرنسا أيام الملك لويس الخامس عشر ولكن هذه الخواطر أشبه باللعب بالنار ، وهو لايستطيع أن يغامر بابنته ويضحى بها ، لقد ضحى بماريو ، وكان يتمنى لو يراه عائدا ورأسه مكلل بالغار شأن أبطال روما أيام مجدها الذى يستعيده الدوتشى . كل ماحصل عليه حتى الآن وسام . احلام المجد والثراء والعظمة مازالت محبوسة فى وسام ، والعمر يتقدم ، وماريا وحدها ، فى حاجة إلى

زوج يحميها ولكن أى زوج . هل يرضى بالفريدو بن ماركو ، ليس هذا هو مايحلم به ، إن رجلا مثله دخل القصور والسرايات وعرف كيف يعيش الأمراء والنبلاء ، لايستطيع أن يقنع بذل الحياة المتواضعة التى يعيش فيها بقية الناس ، وهو منهم ، لايستطيع ان تكون نهاية أحلامه زواج ماريا من أحد أولاد الجيران فى شبرا ، لتنتهى حياتها يوما مامثل الأرملة الزا ، والتى تقضى بقية أيامها تلعب الكونكان وتستقبل اللاعبين فى بيتها لتحصل على الجانيوتا كوسيلة للرزق .

قال ساندرو لزوجته ، إنه يفكر فى أن يصحب ماريا معه إلى السراى لتساعده فى عمله وهو واثق أنها سوف تبهر الجميع وسيختارونها وصيفة من الوصيفات .

كانت هذه هى الصيغة التى ارتاح اليها ، يصوغ فيها احلامه .

ولكن السنيورة ماتيلدا صرخت فيه . وكأنها ادركت كل مايدور فى عقله الباطن .

ـ ابنتى لن تعمل هناك .. طموحك وأطماعك ضيعت ماريو فى الحبشة .. والآن تريد أن تضيع ابنتى ماريا فى سراى الملك ..

لم يتراجع ساندرو بل إعترف بأفكاره وقال لها إن دخول السراى هو مفتاح للاستيلاء على ماتشاء من جاه ومال ، وأنه ليس فى السراى مخاطر ولا أهوال ولا أحباش يذبحون الناس بالخناجر . إن ماريا معدة تماما للعمل فى هذا الوسط الراقى ، ولافرق بين دخولها السراى وذهابها معه الى قصر برتولدى ، وماريا تعرف الجو الذى تعيش فيه الطبقة الارستقراطية ، تعرف لهجة الكلام ، ودرجة ارتفاع الصوت واسلوب الدخول على النبلاء ، واسلوب تحيتهم والاستئذان للانسحاب من حضرتهم وغير ذلك مما يجب على من يخالط النبلاء أن يعرفه . حيث الشكل وأسلوب التصرف وطريقة الاداء هى كل شىء وعليها يتوقف أى شىء فى حياتهم .

ولكن ماتيلدا زأرت ، تدافع عن خطر داهم يوشك أن يفتك بابنتها وهى إذ ترضى بذهاب ماريا الى قصر برتولدى فلأن اصحاب القصر من اشراف ايطاليا ، ومتدينون كاثوليكيون ، يذهبون الى الكنيسة ، اما السراى فيعيش فيها مسلمون لادين لهم ولاأمان بينهم .

وصاح ساندرو فى زوجته :

ـ مادخل الدين بهذا .. إن السراى بها ايطاليون متدينون .. لاتنس أن

صديقك بترو لايفارق الملك ..
صاحت ماتيلدا ساخرة :
ـ اسئأله عن شقيقاته ..
قال ساندرو :
ـ الثلاث تزوجن .. واحدة مع زوجها فى ليبيا .. مهندس كبير .. والثانية فى استراليا تملك مزرعة مع زوجها المجرى والثالثة زوجة لدبلوماسى من أجمل شبان ميلانو ، ابوه يملك عدة مصانع للنسيج .
رفضت ماتيلدا كل الحجج وكانت تضع فى اعتبارها ان ماريا تسمع الحوار الساخن الذى يدور بين أبويها وتريد أن تنقل اليها موقفا حازما فى التمسك بالقيم والأخلاق التى يتجاهلها زوجها لتأثره بتلك الأوساط الكافرة التى يتصل بها . فينبهر بثرائها وبذخها وينسى أنها مجتمع يتحكم فيه الشيطان ، مجتمع دنيوى كله إثم وفجور ونهايته ظلمات وعذاب .
أما ماريا فقد فكرت فى تونى برتولدى وتساءلت هل يختلف عالم الكفار عن عالمه وشعرت برغبة فى أن تذهب مع أبويها الى السراى واقتنعت بما قاله عن وجود بترو مع الملك فهذا كفيل بأن يحميها ، وارتاحت لأن شقيقاته تزوجن برجال مرموقين كلهم من الايطاليين الأثرياء ، فما بال أمها تثور وقد امتلأ قلبها بالخوف ، ولكن من يدرى ، فقد يكون كل مايردده ابوها من وحى الشيطان .
وتراجع ساندرو أمام صمود ماتيلدا ، حتى كان عصر ذلك اليوم الذى ارتفع فيه ضجيج اولاد تلك العائلة من المصريين المسلمين الذين يسكنون فى الطابق الأول من المبنى ، وكانوا يهللون ويهتفون .. سيب النعجة ياخروف .. ويصعدون السلم ويهبطون ، فى هياج غير عادى حتى ظهر كوستا هابطا من بيت الأرملة الزا ، يشتم الأولاد وهم يجرون أمامه وخرج أبو الأولاد وهو موظف بالحكومة فنشب بينه وبين كوستا شجار انتهى بالتماسك بالايدى . وكانت ماريا وأمها تطلان من اعلى السلم ، وهبطت اليها السنيورة الزا ، ترتجف فزعا ، وانتهى الأمر بسرعة عندما اخرج كوستا مسدسه ، فتراجع الرجل مذعورا وجرى اولاده خلفه داخل بيته ، واطلقت زوجته أصواتا تشق الفضاء . وجاء ضابط انجليزى من رجال الشرطة وقبضوا على سيد افندى ، وقالوا أنه وقع تعهدا بألايتعرض هو أو أولاده لجيرانه ، ولايهددهم أو يعكر صفو حياتهم ولكن بقيت بعد ذلك تلك الحقيقة التى

فضحها تهليلئ اولاد سيد أفندى ، أن كوستا يتسلل الى بيت الأرملة الزا فى العصر ، وان كان قد دافع عن نفسه أمام نينا زوجته ، وامام عائلة ساندرو ، بأنه كان يحضر لها أوراق لعب طلبتها منه ، وهم يلعبون الكونكان فى الليلة السابقة وان نينا سمعت الزا بنفسها وهى ترجوه ان يحضر لها من المحل الذى يعمل فيه مديرا ، مجموعة من أوراق اللعب بتخفيض خاص مسموح به للمدير .

لمْ يصدق ساندرو دفاع كوستا ، وقال لماتيلدا :

ـ انظرى ـ هذه هى نهاية البقاء فى شبرا .. وهذه هى نهايتك عندما أموت .. ونهاية ابنتك من بعدنا ..

ولم ينتظر موافقة ماتيلدا ، فذهب الى بترو الذى رحب به فى مكتبه بالسراى وسأله عن ماتيلدا وأخبار ماريا .

وقال ساندرو :

ـ أريد رأيك فى موضوع خاص بابنتى .. هل استطيع ان احضرها معى لتساعدنى فى عملى .. هنا فى السراى .

نظر اليه بترو فى هدوء لم يرتح له ساندرو وقال :

ـ دعنى افكر .

ولم يفكر بترو . كان يخشى أن ينافسه ساندرو ، لقد كان سائقا فأصبح نديما للملك ، يسهر معه ، ويلعب معه القمار ويعد له مواعيده مع الجميلات ويرتب سهراته ويشرف عليها ويتولى مهمة صرف رجال الدولة بلباقة اذا ارادوا اقتحام خلوة الملك وازعاجه فى أمور تعودوا أن يبالغوا فى خطورتها ليكتسبوا من ورائها أهمية لأنفسهم ، ولكنها لاتبرر اقلاق راحة الملك وافساد لحظات متعته .

وتصرف بترو كأى محترف فى مناورات البلاط وضرب المنافسين والقضاء عليهم بمجرد استشعاره أن لديهم ولو فرصة ضئيلة لكسب موقع بالقرب من الملك . إنه يعلم ان ساندرو يفكر ويطمع ، وان فكرة الوصول الى الملك قد اختمرت فى رأسه ، وهو يريد أن ينفذ إلى هدفه مستخدما ماريا ابنته ، ومادام الرجل قد وصل الى هذه الحالة فلن يقف فى طريقه شئ ، واذا لم يساعده بترو فسوف يلجأ الى أميرات ، وقد يتحالف مع أخرين ضده ، لذلك لم يتردد بترو فى أن ينتهز أول فرصة ، وقال للملك : إن ساندرو الحلاق يريد أن يحضر ابنته الى السراى .

ولم يفهم الملك سوى أن ساندرو يريد أن يقدم ابنته له
سأل الملك :
ـ ماشكلها ؟
قال بترو :
ـ بقرة .. بيضاء .. طويلة .. خصبية .. لها وفرة فى الصدر والردفين ..
وابتسم بترو وهو يضيف بلهجة شبه ساخرة :
ـ إمرأه تريد ان تحمل وان تلد عشرين ولدا وبنتا ..
قال الملك ساخرا :
ـ لا أريد أولادا ..
وبهذا التعليق العابر ، حصل بترو على أمر ملكى . بأنه لايريد دخول ماريا السراى .
ولما سمع ساندرو بالأمر . سأل بترو فى دهشة :
ـ لماذا ؟ ..
همس بترو :

ـ الوقت غير مناسب .. الملكة غاضبة .. وتطلب الطلاق .
وشعر ساندرو بالاحباط ، ولكنه لم يفقد الأمل تماما ، فى أن يشق طريقا ، على نحو لايدرى كيف يكون ، للوصول بابنته إلى عالم الثراء والأميرات .. وحصل ذات يوم على تذكرة لاحدى الحفلات التنكرية ، تقيمها جمعية مبرة محمد على لجمع التبرعات للأعمال الخيرية . وذهبت عائلة ساندرو إلى الحفل الذى أقيم بنادى الجعران الذهبى ، وقد ارتدت ماريا ملابس نبيلة من نبيلات القرن الثامن عشر ، وصفف ساندرو شعرها خصيصا للمناسبة على هيئة برج مرتفع ، يكشف عن رقبة ماريا عارية كعمود من العاج . وكان ساندرو واثقا أن هذه التسريحة سوف تلفت الأنظار ، وأنها لابد وأن تجذب أنظار الملك إلى ماريا ، وهى تتحرك بقوامها الطويل الشامخ ، ووجهها الطيب المستدير ، ولكنه لم يفطن إلى أن برج الشعر ـ رغم أنه يلفت الأنظار ـ يضفى طابعا كاريكاتوريا على إبنته ، وكان يصحب ماريا ، الفريدو ، الذى التحق أخيرا بالعمل باستوديو مصر كمشرف على اضاءة البلاتوهات ، وكان يرتدى ملابس دون جوان من القطيفة السوداء ، ويضع على عينيه قناعا أسود ، أما السنيورة ماتيلدا ، فقد تنكرت فى ملابس أسبانية ، أحضرها الفريدو من مخزن الملابس التاريخية باستوديو مصر .

وكان فستانها أسود مشغولا بالدانتلا ، وثبتت فى شعرها مشطا كبيرا ، أسدلت عليه غلالة من التل الأسود تخفى ملامح وجهها رغم حرارة الصيف ، فقد كانت تشعر بالراحة ، لأن العيون لن تعرفها ، وستظل تخمن ما إذا كانت أميرة من الأميرات ، أو واحدة من سيدات الطبقة الحاكمة فى مصر ، فهذا أفضل من أن تقطع كل من تراها على الفور بأنها زوجة ساندرو الحلاق ، وكان ساندرو قد اختار ملابس يوليوس قيصر ، وتقلد سيفا قصيرا يتدلى من خصره . وأخفى عينيه بقناع أسود ، وقد أحضر ملابسه وملابس ماريا من مخازن الملابس فى الأوبرا ، حيث يشرف عليها صديقه باولو ، وهو الذى قال له ، إن أسرة برتولدى سوف تحضر الحفل ، فى ملابس ايطالية من عهد سيزار بورجيا .

وخاب أمل عائلة ساندرو ، عندما وجدوا أن الأماكن المخصصة لهم ، حول مائدة بعيدة عن « بيست » الرقص ، الذى تشرف عليها المائدة الرئيسية المخصصة للملك وحاشيته .. وكان أمل ساندرو ، فى أن تظل ماريا ترقص أكبر وقت ممكن ليراها الملك ، ومن يدرى ، فقد ينفتح بعد ذلك الباب السحرى الذى يؤدى إلى المائدة الملكية التى تجلس عليها ماريا أمام أنظار الجميع .

وكانت ماريا تفكر دون اتفاق فى تلك اللحظة التى يراها فيها الملك، وتراه ، وتقول لنفسها ألست جميلة ، إن الملك أذا أعجب بى سوف يطلب العائلة كلها للجلوس معه ، وأبوها يقول أنه يسعى إلى صداقة الايطاليين ، وعلاقته بهم أقوى من علاقته بالمصريين ، وأبوها يتحدث عن الملك كما لو كان شخصا غريبا ، أو كسلطان من سلاطين الشرق ، الذين يتحدثون عنهم فى الروايات التاريخية ، ويتهمونهم بالقسوة والفظاظة ، إنه يؤكد أن الملك لطيف ويتحدث الايطالية ، وهو كل شىء فى مصر ، وعيوبه هى عيوب طفل مدلل بدين ، أكول ، ولو قبل صداقة ماريا ، فسوف تساعده على أن يأكل باعتدال ، وأن يكون مهذبا متمدينا ، وسوف يستفيد هذا الطفل من معرفته بعائلة أيطالية فاشستية ، وهبت أبنها ماريو قربانا على مذبح المجد الفاشستى ، إن الاقتراب من الملك ، أسهل بكثير من الاقتراب من الشيفالييه برتولدى القاضى بالمختلط . ذلك النبيل المتعجرف الذى يعيش فى قصره كما لو كان قيصرا ، عندما ذهبت مع أبيها إلى قصره شعرت بالأهانة ، وهبطت إلى مستوى الخدم ، إنه شعور لم تتصور أنها ستعرفه

يوما ما ، ومن أين يأتيها هذا الشعور المهين من عائلة أيطالية ، ولكنها غير فاشستية ، لا تعلم أن النبلاء الجدد ، أصحاب الدماء الفتية التى سوف تعيد المجد القديم ، هم أمثال ماريو ، ومثلها ، وهى بسبيل القيام بخطوة تاريخية حاسمة سيكون لها شأن فى صناعة مجد روما فى مصر ، لو سمحت لها الأقدار فى اللحظات القادمة أن تقابل الملك . ومهما كانت رداءة نوعية الحاكم المصرى ، كصناعة محلية عربية أو تركية ، مسلمة ، متخلفة لا تصلح إلا لحكم فلاحين من طبقة دنيا . إلا أن التعامل مع هذا الحاكم أهم وأكثر نفعا من ضياع الجهد فى محاولة يائسة للتعرف على عائلة ارستقراطية ، من صناعة ايطالية عريقة ، كاثوليكية ولكنها فقدت حيويتها ، مثل السنيورة برتولدى ، لاتستطيع أن تخرج من صمتها الذى يشبه الشلل ، إلا إذا شربت الويسكي حتى الثمالة . أما آل برتولدى الرجال ، فهم كما رأتهم ، أنصاف آلهة ، يمشون متعالين ، لاينظرون حولهم ، ولا يعنيهم أن يتعرفوا على أحد ، أنها بكل تأكيد لن تحظى بشىء من رجل مثل الشيفالييه برتولدى ، أن أقصى ما قد يربطها به ، أن تقف أمامه ليحكم عليها فى المحكمة ، إنه وحده الذى يستطيع أن يحاكمها ، أما الملك فلا يستطيع ولا أحد من المصريين ، وعندما هاجم أولاد سيد أفندى ، كوستا ، جاء ضابط أنجليزى ، ثم كونستابل أنجليزى ، الأول قبض على سيد أفندى ، والثانى أعاده إلى البيت . ومنذ تلك الأيام ، والخوف واضح فى عيونهم ، ولو كان كوستا أطلق الرصاص على سيد أفندى ، لكان ذلك دفاعا عن النفس ، هكذا قالوا فى النادى يوم الأحد وهم يشربون البيرة ، وقال أبوها إن الشيفالييه برتولدى حكم فى قضية مشابهة ، عندما أصاب الذعر أحد الفرنسيين ، من صراخ رجل من الأهالي في السوق ، فأخرج مسدسه وقتله ، وأن المصريين تجمعوا ، وكادوا يفتكون بالرجل لولا أنه دافع عن نفسه .. برتولدى هو الحاكم الحقيقى ، ولكنه شارد وحيد متأله . وابنه تونى مدلل أفسدته أمه ، أما الملك صاحب اللقب الساحر ، فهو فى حدود قدراتها ، مصر كلها فى حدود قدراتها ، فالناس فى مصر ، مهما كانت ثرواتهم ، أو مناصبهم ، أو ألقابهم ، قوم متخلفون ، لايفهمون شيئاً عن الحياة كما يجب أن تكون . تتحكم فيهم انحرافات وخرافات ، ولا فائدة من التعامل معهم إلا بفرض الأمر عليهم ، وهذا هو مايردده الجميع فى النادى وفى سهراتهم ، كان ساندرو يقول لهم إنه سمع من بترو أن الانجليز يتحكمون فى أربعة عشر مليونا من

المصريين بفرقة من الجنود لا يتجاوز عددها أثنى عشر ألفا . لو هجم عليهم سكان شبرا من الايطاليين وحدهم ، أو لم هجم عليهم سكان الأزاريطة ، لوضعوهم فى مأزق لا يحسدون عليه . ولو تحرك أولادنا من القمصان السوداء ، وحدهم لتغلبوا عليهم ، قبل أن تصل جيوش الدوتشى من ليبيا :

سوف يجىء الملك فى أية لحظة ، الرجل الذى يتحكم فى مصير البلد ، ويخضع له كل المصريين بجهلهم ، وأمراضهم ، وعقدهم النفسية ، وتخلفهم العقلى وكسلهم ، وأنه لأمر هين جدا أن تدخل تجربة السيطرة على الملك ، مثلما يسيطر عليه بترو وغيره . فمن يكون هذا الملك ؟ ان أسرته لا صلة لها بالمجد والأرستقراطية ، وتاريخها يعود إلى بائع دخان ، فى « قوله ». وهو يحكم شعبا من الفلاحين ، كل معلوماتهم ، وأهم أعمالهم لاتزيد على إلقاء بذور فى الأرض ، تاركين الطبيعة لتقوم بمهمة إنباتها وانتاج محاصيل يعيشون بها حياة بسيطة ، مستواها منحط ، لا يستطيعون صناعة شىء له قيمة ، ولا يستطيعون انتاج سيارة أو راديو أو مدفع رشاش . لاشىء على الاطلاق . فإذا كانت الفرصة تتاح لها لأن تصل إلى مركز السلطة ، وأن تستولى عليه . فلماذا التردد ؟، وما أهمية أى شىء آخر ، فأمام السلطة تتراجع كل القيم ، وكل معانى الشرف والأخلاق والتقاليد ، لأنها جميعا من توابع السلطة ولا قيمة لها إلا فى ظلها .

كانت ماريا ترقص وهى تدور فى حلقات ، مع الفريدو الدون جوان ، وعيناها لا تغادران المائدة الملكية الخالية ، وكانت «البيست» قد أكتظت بالراقصات والراقصين . ورأت على مقربة منها تونى ، قناعه الأسود لا يخفى ملامحه ، وداخلها شعور غريب ، أنها الليلة سوف تنتقم على نحو ما منه . لأنه تجاهلها ، وهو يرقص مع تلك المرأة القصيرة فى ملابس يابانية ، ولا يلتفت إليها . وظلت تنتقل بين المائدة الملكية الخالية ، وتونى ، حتى رأت وجهه يستدير ناحيتها ، للحظة ، وأرتسمت على شفتيه أبتسامة ، وتحدث مع اليابانية ، فنظرت اليها ، وأبتسمت ، كانا يسخران منها . وأحتقن الدم فى وجهها وأوشكت على البكاء . والفريدو يرقص ليس على باله شىء . وكانت كلماته القليلة تدور حول وجود بعض المصريين فى الحفل . وكيف سمحوا لهم بالدخول ، وكأنه أصبح من مستوى برتولدى ، يتأفف من الناس من طبقة دون مستواه . وفجأة ربتت يد على كتف ماريا . وتوقف الفريدو ، بينما التفتت ماريا لتواجه بترو . كانت قد مضت سنوات منذ رأته آخر مرة . ولكنها

عرفته على الفور .. وكان يبتسم لها قائلا :
- ما أجملك .
ثم أردف :
- ساندرو ينتظرك .
وأمسكها بثقة من يدها ، وجذبها معه وكأنه لم ير الفريدو . وقبل أن تصل إلى مائدة أبيها ، كان قد التقى بهما ، وبترو يقول له هامسا :
- الملك سوف يقابلها الآن .
وفسر بترو الذى حدث . لقد جاء الملك خلسة إلى الحفل ، ولم يشأ أن يجلس إلى المائدة المعدة له ، وأكتفى بمراقبة الحفل من مخبئه .. ورأى ماريا .. فطلب إلى بترو أن يستدعيها للمثول أمامه ..
كانت ماتيلدا قد لحقت بزوجها ، وقد غلبها انفعال شديد ، وسألت بترو بعصبية :
- أين سيقابلها .. كان المفروض أن نكون معها ..
قال ساندرو محتدا :
- الملك ليس ككل الناس .. إنه الدولة وله أن يلتقى بمن يشاء فى أى مكان يشاء ..
وقال بترو فى هدوء :
- لا تخشى شيئا ياماتيلدا .. أنا موجود معها .
سألته ماتيلدا وهى تزغر له :
- هل تضمن لى سلامة أبنتى :
قال بترو :
- ياسنيورا ماتيلدا .. أنت شخصيا .. وأميليو .. تحصلان اليوم على شرف عظيم تحسدكما عليه كل الموجودات فى هذا الحفل . ان الجميع ينظرون إلينا .. وعندما أخرج مع ماريا .. سيعرف الجميع أنها وصلت إلى مرتبة ملكية عالية .. وهذا سوف يغير حياتكم تماما منذ هذه اللحظة .
وألتفت بترو إلى ماريا وقال :
- هذه التسريحة .. غدا سوف تجدينها على رأس كل الأميرات .. وسيدات المجتمع .. ليس هذا فقط .. إن علاقة الملك بايطاليا تهم الدوتشى شخصيا ..
كانت ماريا مستسلمة للحديث .. وكان الفريدو ينظر إليها نظرة غريبة

فيها خوف .. وربما هلع ، كأنها تحولت فجأة من ماريا التى يعرفها وكان يراقصها إلى كائن أسطورى رهيب ، وتبعها بعينيه ، وهى تتحرك منومة ، أو مستسلمة ، أو واثقة ، فهو لايدرى ما الذى حدث بالضبط . وقد أخذها بترو متأبطة ذراعه . ومضى بها بين جموع الراقصين ، مخترقا صفوفهم . وهم يفسحون الطريق عن فهم ، وعن تقدير للموقف ، وعن تسول لابتسامة من بترو ، أو نظرة معرفة ، والموسيقى رغم صخبها تبدو وكأنها خرساء فالمنظر الذى تراه العين يطغى على ما تسمعه الأذن حتى اختفت ماريا ، ومعها بترو ، عن الأنظار ..

الفصل الرابع

انطلقت سيارة القصر بستائرها المسدلة على نوافذها ، وصوت بترو الناعم ينصحها كيف تتعامل مع الملك . البساطة يا ماريا ، والرقة ، والابتسامة العذبة . إن قبولك ياماريا سوف يفتح ابواب المجد والثراء لأبيك الذى تعذب كثيرا ليجد له مكانا فى الحياة . والآن جاءت فرصة العمر .

كانت خائفة ولولا أنها تعرف بترو لظنت أنها ضحية جريمة اختطاف ، ولم تعد قادرة على سماع كلمات بترو ، وشعرت بمغص فى بطنها ، ولكنه خفيف . احتملته وهى تحاول أن تختلس نظرة بين فجوة فى الستائر ، فلا تكاد ترى الا الليل الموحش ، والسائق فى مقعده الأمامى ، بينه وبينهما حاجز زجاجى ، يرتدى معطفا أبيض وفى يديه قفاز ابيض وعلى رأسه كاب أبيض ، بينما جلد قفاه أسود .

وهمست بصعوبة :

- الى أين تذهب .

وجه اليها بترو عينين باسمتين ، وربت على ركبتها بلطف ، قائلا بصوته الناعم :

- اصبرى ياماريا ..

لم تطمئن لابتسامة عينيه ، ولكنها لزمت الصمت ، تقاوم المغص ، وتحاول أن ترى شيئا من فجوة الستائر . حتى فوجئت بالسيارة تقف . والسائق يهبط ليفتح لها الباب ، وجهه صامت متجهم ، ترى من خلفه الليل مازال موحشا ، كأنها ستهبط من السيارة فى هوة من ظلام . وهبط بترو ، ومد يده يدعوها للخروج من مكمنها فى السيارة وأطلت برأسها فرأت مالا تتوقعه ، وثب قلبها وهى تنظر فى وجه رهيب لابى الهول ، وحجارة ضخمة متراصة ، وهرم يرتفع الى سماء لا يضيئها قمر . وسمعت بترو ، سمعت الصوت ، ولم تفهم الكلمات ، وكانا يجتازان بهوا خاليا ، ورجل اسمر يرتدى سترة بيضاء ، وبنطلونا أسود يقف بجوار باب يفتحه وأدخلها بترو حجرة ، وهو يهمس :

- انتظرى هنا .

قبل أن تستجمع قواها لتقول شيئا ، كان قد اختفى ، واغلق الخادم الأسمر الباب .

كانت فى حجرة نوم عادية ، لا صلة لها بما كانت تتخيله أو تسمع عنه فى القصور . سرير خشبى عريض ، عليه ملاءة وغطاء أصفر قديم ، ودولاب ملابس بلا مرآة وأمام السرير كنبة من القطيفة الحمراء بجوارها منضدة عليها اكواب وصحون فارغة ، وكان الجو حارا ، والرطوبة عالية ، والنافذة مغطاة بستارة سميكة حمراء ، طرفها الأعلى ممزق ، حاولت أن تزيح الستارة فلم تفلح ، ومدت يدها الى مقبض النافذة تريد فتحها ، ولكنه لا يلين ، ورأت وجهها منعكسا على زجاج النافذة ، واجتاحها رعب ، أو لعلها فى كابوس ، فقد رأت وجها كأنه وجه آخر لا تعرفه ، ما هذا البرج الكبير من الشعر فوق رأسها . وحبات عرق تتصبب على جبينها ، وأشباح غير محددة تطوف برأسها ، وهى ترفض أن تحددها ، ولكنها واثقة أنها تحاصرها ، وتضيق حلقاتها حولها . وتحركت فى الحجرة بضع خطوات ، وجلست على الاريكة ، وتحسست ملمسها الخشن ، من القطيفة الساخنة تختزن حرارة الجو . ليس هكذا يعيش الملوك ، لا راحة ولا ذوق ولا أمان ، ونهضت تتحرك من جديد ، تحركت الى الدولاب وحاولت فتحه ، فلم ينفتح ، وذهبت الى النافذة ، ولم تفلح محاولة جديدة لفتحها ، وعادت تتأمل وجهها الغريب فى الزجاج . هل يريد الملك مقابلة هذا الوجه ، أى ملك هذا الذى يعيش فى هذا الجحر ، أين السراى ، أين الأبهة والفخفخة ، وما الذى يريده الملك من هذا الوجه الذى يطل عليها من الزجاج . وتراجعت هاربة مما تراه ومما تتخيله ، وتأملت السرير ، لون الأغطية يرهق عينيها بقتامته ، وضوء مصباح على شكل صحن من الزجاج الاحمر المصنفر يضفى كآبة على الحجرة كلها . وأسرعت ماريا الى الباب ، وفتحته ، ونظرت حولها فلم تجد أحدا ، كان البهو صامتا ، اثاثه قليل ، مقاعد خشبية ، ومقاعد من خيزران وبساط قديم ألوانه باهتة ، يغطى مساحة كبيرة من بلاط البهو . لا وجه للمقارنة بين هذه الكراكيب المتواضعة ، وأثاث قصر السنيور برتولدى ، هناك الذوق الرفيع ، والثراء الحقيقى ، وهنا لا ثراء ولا ذوق ، وخيل اليها أنها تسمع أصواتا خافتة ، تأتى من أعل سلم فى البهو ، ماذا يفعلون هناك ، ولماذا لا يدعونها الى الصعود ، ولماذا يتركونها وحدها ، وتقدمت خطوة فى اتجاه السلم ثم تراجعت وتحركت فى اتجاه الباب الذى دخلت منه الى البهو ، لو اجتازت هذا الباب الى الخارج ، فسوف تعود الى الليل الموحش ووجه « ابو الهول » والأهرام ، وسوف تنطلق فى الليل ولا تعود . قبل أن تختمر الفكرة فى رأسها ، ظهر لها الرجل الأسمر ، كأنه خرج من جوف الأرض . وسألها اذا كانت تريد شيئا . فارتبكت . نعم تريد ولكن ما الذى تريده . أن تخرج . وكيف تخرج ، أن يأتى لها بالملك ، أن يتركها وشأنها . أن يأتى لها ببيترو ، أن يعود بها الى ابيها ، لم تنطق بكلمة ، كما لو كان صوتها سيفضحها سينم عن شىء لا تريد أن

تبوح به ، كيف أخرج من هذا المأزق يا سانت تيريز . رأت تمثالها وهى مضطجعة في الكنيسة وعادت مسرعة الى الحجرة ، وأغلقت الباب عليها ، وواجهت السرير ، ورأت نفسها مضطجعة عليه ، والملك ينظر اليها ، هل هذا هو ماكانت ترفض أن تواجهه ، الأشباح التى رفضت أن تحددها ، ورأتها تحاصرها ، وتضيق حلقاتها حولها . حتى الآن وهى تطرد هذا المشهد من خيالها ، كأنه مشهد مستحيل ، ولم يمدها أبوها ولا أمها بشيء من هذا ولكنهما يعلمان ، مثلما يعلم بترو ، وهذا هو بالتحديد ما كان يعنيه ، ان تكون رقيقة وبسيطة وأن تبتسم . هذا هو ماكان يعنيه أبوها ، وهو يقول لأمها الملك هو الدولة ولقد قبلت أمها ما سمعته ، ولم تعترض ، ولم تمسك بها وترفض ذهابها مع بترو . ولكن لابد أنها تعلم . ان احلام الثراء والسيطرة على ملك ، معناها الدخول فى تجربة ، والتعامل مع الشرير . أول ما ستفعله فى الصباح هو أن تذهب الى سانت تيريز ، وسوف تدق جرس كرسى الاعتراف ، ويضيء المصباح فى حجرة الأب لورنزو ، وتدخل الى الكرسى ، وعندما تلمحه خلف الثقوب فى الخشب المشغول ، تعترف له بذنوبها ، ذنبها الكبير ، اثمها الكبير ، الذى توشك أن تسقط فيه ، وسوف يتلو الأب صلواته ، وسوف تقول له أنها فعلت ما فعلت ، لأنهم قالوا أن مجد روما ونفوذ ايطاليا ، يرتبطان بقبولها لما سوف يعرضه الملك عليها . سوف تقول للأب لورنزو باكية نادمة أن ما حدث كان من أجل الوطن والدوتشى ، من أجل ابويها ، من أجل ذكرى ماريو ، ولكنها سوف تقول أيضا أنها فعلت ما فعلته ، لأن الشيطان اغراها بجمالها ، ولأنه أغواها ، وكان يهمس فى أعماقها أن جمالها لا يستحقه الا الملوك فى الحقيقة ، ليس الملوك ، فما كانت تتمناه هو تونى برتولدى ، لماذا تذكرت تونى . انها تريده ، وتتمنى لو كانت هذه اللحظة ، تنتظر فيها تونى ، فهذه هى الفرصة الحقيقية لأن تعيش معه ، تتزوجه ، وتصبح السنيورة برتولدى . ترى هل تحدث المعجزة ، فترى تونى يدخل عليها . أم لعل المعجزة أن يحبها الملك ويرضى بأن يجعلها ملكة على مصر . ترى أية كفارة سيطلبها منها الأب لورنزو . انها لن تعترف بخطيئة هينة ، أم أن الملوك فوق الخطيئة . وما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . لماذا تأخر الملك .

كان سؤالها ، أشبه بنداء مستجاب ، فقد انفتح الباب بعنف ، ارتج له قلبها ، وظهر الملك يملأ فتحة الباب بجسمه العريض المتين . يبرر الضجة التى احدثها وهو يقتحم الباب . انفضت واقفة ، واسرعت بالانحناء تثنى ركبتيها كما علموها ، انتفضت على صوت قهقهته العالية الصاخبة ، رفعت اليه عينيها فرأت جسده يهتز وعيناه محمرتان ووجهه محتقن بالضحك ، وكان يصيح وهويشير بأصبعه الى رأسها .

ـ ما هذا الذى وضعه ساندرو فوق رأسك ..
احتارت ، لم تفهم ما الذى يعنيه ، ولم تسعفها الكلمات لتجيب عن سؤاله ورأته يتقدم نحوها فتراجعت . فصاح متجهما :
ـ قفى مكانك .
تسمرت مكانها . ومد يده الى برج الشعر فوق رأسها ، لا ينظر الى شىء غيره . وقال بلهجة طفل عابث ، واصابعه تنفذ فى شعرها فيرتجف جسدها رعبا .
ـ لا توجد اسلاك .. هذا ما توقعته ..
وتهلل وجهه قائلا :
ـ كسبت الرهان .
وضحك بكل قوته ، وجذب الشعر ، فصرخت من الألم ، فقال ضاحكا
ـ انه يحتاج الى مهندس يفك هذا البرج .
وتراجع خطوة الى الوراء ، وعاد يتأمل جسدها ، وارتعدت وتقدمت يداه الى فستانها ، ورفعه ، من ذيله ، فكشف عن ساقيها ، وهى بلا حراك ، اعماقها تصرخ مستنجدة بسانت تيريز ، ان تنقذها من هذا البدين الضاحك ، الجامح ، وقبل أن تنتبه كان قد دفعها فسقطت على ظهرها وسقطت دموعها ، وصرخاتها الخرساء ، مازالت تستنجد بسانت تيريز ، وسقط الملك فوقها ، وهو يلهث ، كانت مشلولة ، عاجزة عن التفكير ، عاجزة عن المقاومة ، لا تستسلم الا لتوسلاتها المتضرعة أن تنقذها سانت تيريز . وذلك الجسد الضخم يضغط عليها يخنقها ، ولكنه رغم ثقله وجسامته ، عاجز عن أن يصل اليها ، لا تشعر بوجوده ، كما لو كان جسده قد تحول الى كتلة صماء مشلولة . وفجأة عاوده الضحك ، عيناه مغرورقتان بالدموع ، وانزاح عنها ، غير مهتم بعجزه ، وتركها مندفعا الى الباب ، ملابسه مفكوكة ، وشعره مشعث ، وبنطلونه منسدل على ركبتيه ، وسمعته يصيح فى الخارج ، وعاد وكانت واقفة وفى اعماقها احساس عميق بأن سانت تيريز قد صانتها على نحو ما ، ورأت رجالا ونساء ، وكان بينهم بترو . والملك مازال يقهقه ، وكان الجميع يضحكون . والملك يردد
ـ كسبت الرهان .. ليس فى شعرها حديد .
وتقدم احد الرجال ، وفى يده آلة تصوير ، انطلق منها وهج ابيض ، والتقط لها صورة ، وهى ذاهلة تواجه هؤلاء الذين اقتحموا الحجرة . لم تعد تفرق بين واحد وآخر . وكانت كل ذرة فى جسدها تنتفض ، والصوت الأخرس يدوى الآن فى أعماقها يردد لدهشتها كلمة .. أنا .. أنا .. أنا .. كما لو كانت تبحث عن نفسها ، او كأنها وجدت نفسها ، وتعرفت عليها لأول مرة ، ولا تصدق أنها هى ، هى ، التى تصمد أمام هؤلاء الغرباء ، يحاصرونها وقد جاءوا من عالم آخر ، انتقلت اليه

غضبا . ولم تستعد وعيها تماما بما حولها ، حتى اختفى الجميع ، وانتبهت على صوت محركات سياراتهم تنطلق بهم . ولم يبق الا بترو يقف بجوارها ، وكأن شيئا لم يكن .

قال لها بهدوء :

ـ هكذا يتصرف الملوك . اننا لا نتعامل معهم .. ولكننا ندور حولهم .. ولا أحد يفهم ماذا يريدون .. هم أنفسهم لا يعرفون الذى يريدونه .. ولقد راهن عندما رآك على أن شعرك ملفوف بغير اسلاك أو دبابيس شعر ، وكان يدافع عن خبرة ساندرو . والذى راهنته المليونيرة الامريكية ساندرا بلت ، وقالت له أنه مستجيل ان يكون هذا البرج من الشعر متماسكا بغير اسلاك أو شىء يصلب عوده . فقال لها أن حلاقه ساندرو افضل من أى حلاق فى العالم . وهذا هو الذى أراد أن يتحقق منه .. وسكت لحظة . وكانت واجمة ، تسمعه دون أن تعى شيئا محددا ، كانت كلماته تصل اليها من الخارج فتتكسر تحت مطارق تصرخ .. أنا .. أنا .. أنا ..

وسمعته يهمس

ـ أنت تعلمين أن الملك لم يضرك فى شىء .. انه عندما يفشل كصبى مراهق .. يحدث ضجة .. ويخرج الينا وملابسه مفكوكة .. وهذا هو ما حدث ..

قالت بلا تفكير :

ـ سانت تيريز انقذتنى .

قال بهدوء :

ـ نعم .. هذا صحيح .

واخذها من يدها الى السيارة التى جاءت بها ، وقال لها هذه المرة ، انه سيعود بها الى بيتها فى شبرا . وفى الطريق قال لها أنها منذ الآن أصبحت ذات نفوذ ، وسيكون لها شأن بين سيدات البلاط . وأعرق الأسر .

ولما وجدها صامتة ، طلب منها الا تروى كل ماحدث لابويها . فما دام لم يمسها ضرر ، فلا معنى للكلام ، ويكفى أن تقول لهما أن سانت تيريز كانت معها .

وعندما دخلت على ابويها ، ادركت أنهما فوجئا بحضورها وايقنت أنهما توقعا أن تقضى الليلة مع الملك . وقالت لها أمها ، أنها كانت قلقة عليها ، ولكن مخاوفها انزاحت عندما سمعتها تقول أن سانت تيريز وقفت بجوارها . ورغم ما قالته الأم ، كان القلق ينهشها . ولما سمع ساندرو حكاية الرهان . قال :

ـ هذه هى عناية الرب .. انها ألهمتنى أن اصفف شعرك بهذه الطريقة ..

بينما صاحت السنيورة ماتيلدا فى زوجها أن يكف عن الكلام . فالوقت متأخر . والفجر اقبل ، وهى تريد الانفراد بماريا . فالبنت المسكينة مرهقة ، الا يرى أنها

ذاهلة لا تريد أن تقول شيئا ، سوى أن سانت تيريز كانت معها .
صاح ساندرو :
ـ ولماذا لا أعرف أنا ايضا .. كل شيء انها كانت مع الملك .. أقوى وأغنى رجل في هذا البلد .
واتجه الى ماريا ، وامسك بكتفيها ، ونظر فى عينيها وسألها :
ـ هل حدث بينكما شيء .. اريد أن أعرف .
كان يسألها . وعينيه توشك أن تتوسل اليها الا تبوح بشيء . هذا ما شعرت به ، وتذكرت نصيحة بترو .
وقالت لابيها :
ـ لم يحدث شيء .. سوى الرهان .. وقد جذبني من شعرى .. ليتأكد انه خال من الاسلاك والأمشاط والدبابيس .
وحسمت ماتيلدا الموقف ، فجذبت ساندرو من يده وابعدته ، واغلقت الباب على ابنتها ، وسألتها باصرار :
ـ ماذا فعل بك .
أطرقت ماريا برأسها لا تريد أن تجيب .
فمدت ماتيلدا يدها الى ثوب ماريا ، ورفعته ، وفزعت ماريا ، وهى ترى الرجل البدين يفعل نفس الشيء ، ولكن ماتيلدا كانت تعرف ماتريده ، فلما تأكدت ان ابنتها لم يمسسها احد ، انتابها وجوم ، وانفجرت فجأة فى غضب شديد تسأل عما فعله الملك . تسأل عن كل حركة بدرت منه ، كل كلمة قالها . انه لم يمسها هذا واضح ، ولكن لابد أنه حاول ، فهل امتنعت أم لم تعجبه ، أمعقول أنها لم تعجبه ، وليس هناك ماهو أجمل منها . أتصدق أن سانت تيريز قامت بمعجزة ، ولكن ماهى تفاصيل هذه المعجزة . لابد أن تفسر ماريا اللغز . لابد أن تتكلم . فلما تشجعت ماريا وحكت لها كل ما أرادت أن تعرفه . بدا وكأنها تجاهلت ما سمعته ، وانطلقت تلوم ساندرو ، لأنه لا يصلح لأن يصفف شعر ابنته
وخرجت ماتيلدا من الحجرة ، لتواصل هجومها على ساندرو ، ولتقول له فى مواجهته أنه مهما زعم انه حلاق ممتاز ، وحلاق الأميرات ونساء المجتمع الراقى ، الا أنها لا تذكر أنه طوال حياتهما الزوجية التى دامت اكثر من عشرين عاما ، استطاع أن يقوم بتسريح شعرها بشكل ملائم ، ولو مرة واحدة . بل هى واثقة الآن انه تعمد تشويه شكل ابنته ، واساء اليها اساءة بالغة .
ودافع ساندرو عن نفسه ، وهو يسأل بدهشة :
ـ ما الذى حدث .. ماذا قالت لك ماريا ..
صاحت ماتيلدا غاضبة :

ـ اراد اغتصابها .. ولكنها قاومته . ثم سخر من تسريحة شعرك .
اصفر وجه ساندرو ، وسأل :
ـ كيف ؟
قالت ماتيلدا :
ـ ماريا شريفة .. طاهرة .. ويشهد بذلك عشرات كانوا موجودين .
قال ساندرو وقلبه يترنح بين ضلوعه :
ـ لم اعد افهم عن أي شيء تتحدثين .. من كان موجوداً .. من هم .؟ هل ذكرت اسماء .. هل عرفتهم . كان يفكر في الوجوه التي سيلقاها ، في النظرات الساخرة ، او التي رأت ابنته .
قالت ماتيلدا :
ـ كيف لها أن تعرف .. ولكن المهم الآن أن تتصرف ..
هتف ساندرو :
ـ ماذا تعنين ؟..
قالت ماتيلدا :
ـ اعني أن يعوضك الملك .. عن هذه الفضيحة ..
قال ساندرو بلهجة واثقة ، وهو يفكر في الفضيحة الملكية كما لو كانت وساما يحصل عليه :
ـ هذا امر لا شك فيه .
لقد انتعشت ماتيلدا بعد أن تأكدت ان ابنتها لم تدفع الثمن ، وشعرت بأنها في موقف يتيح لها أن تطالب ، وأن تلوم ، وأن تصلى ، وان تطمع ، وأن تزهو وتتباهى بحفل الاستقبال الذى دعيت اليه ماريا في سراى الملك ، لتكون وصيفة للأميرات ، فيهكذا تطور الحادث بسرعة في رواية ماتيلدا له ، وصياغتها لأحداثه ، بل في تذكرها لتفاصيله ، وتفسيرها لها .
وعلى أية حال ، كانت الفضيحة الملكية بداية عهد جديد للجميع ، وأقبلت اميرات وسيدات ، يطلبن من ساندرو أن يصفف شعورهن على شكل البرج الذى اثار انتباه الملك وجعله يتيه هياما بتلك الفتاة الايطالية ، التي يزعمون انها ابنة ساندرو ، ولكنها اميرة ايطالية من بيت سافوى الملكى ، وفى تطور أخر للحادث ، حكى الرواة تفاصيل لم تخطر ببال أحد ، كيف قضى الملك ليلة مع ماريا ، في عربدة ومجون لم يعرف مثلهما رجل مع امرأة ، حتى أن الملك أمر بتصوير مواقف ماجنة له مع تلك المرأة ، ليحتفظ بذكرى ليلة من ليالى العمر لا يريد أن ينساها .
وقيل أنه يحتفظ بهذه الصور في ألبوم خاص ، يضم أجمل وامتع المناسبات التي قضاها مع أجمل بنات العالم .

وكان الانطباع السائد ، ان الذى بهر الملك وأظهر له جمال ماريا وفتنتها ، هو تسريحة الشعر التى ابتكرها ساندرو ، والتى ابرزت الوجه والرأس فى جمال يشبه جمال نفرتيتي وعلى رأسها تاج ، ويبرز مفاتن الرقبة كعود من الرخام أو المرمر البالغ الرقة والاناقة . وقال بعض الثقاة ، ممَّن يهتمون بتتبع كل ما يجذب انظار السلطة ويكسب اهتمامها ، أن فن ساندرو ، جعل هذه التسريحة وسيلة لتصوير الجمال الانثوى ، فى اكتماله ، الذى يتم فيه المزج بين وجه صبية جميلة ، بقسمات وجه صبى وسيم ، وان هذا المزيج من الجمال ، هو الذى اصاب الملك بهوس أفقده اتزانه ، حتى أنه خرج عاريا من الحجرة ، يصيح فى حالة هستريا ، ان تعالوا شاهدوا ما انا فيه من متعة ولذة .

وكلما استفاض الخبراء فى شرح وتفسير الحادث ، استشاطت الاميرات وسيدات المجتمع انفعالا ، وتهافتن فى جنون على ساندرو ، ملك الحلاقين المتوج .

وحدثت تطورات زادت الأمور اثارة ، فقد ذاع أنْ الملك طلب من احدى الوصيفات وقد رأى على رأسها برج ماريا ، أن تفك شعرها فى الحال ، والا تظهر بهذه التسريحة فى السراى ، وقيل أنه اصدر أمرا بمنع هذه التسريحة ، لأنه لا يريد أن يذكر غير ماريا فى هذه التسريحة .

وأصبحت ماريا محل حديث محموم فى كل مكان يتجمع فيه رجال أو نساء لهم صلة بالسراى والسلطة ، وكان ساندرو يتهرب من اسئلة الفضوليات ، ولا يجيب بما يشفى غليلهن أما السنيورة ماتيلدا ، فقد ظهرت فى سهرات بالنادى وعلى راسها تسريحة البرج التى نالت الاعجاب والحسد .

ووجدت ماريا نفسها محاصرة بالعيون التى تتفحصها والوجوه تبتسم لها ، وفى السهرات الراقصة بالنادى ، كانت لا تجد لحظة واحدة تستريح فيها من التنقل بين أذرعة شبان العائلات الايطالية فى شبرا . وحدثها كوستا عن رغبته فى ان تعمل معه فى محلات "ب" بالعتبة ، لتتولى قسم العطور ، وهو واثق ان مجرد وقوفها فى القسم سوف يضمن رواج العطور وزيادة مبيعاتها بنسب تفوق أى تصور . غير أن أخطر تطور ، هو ذلك الذى حدث فى بيت الشيفالييه برتولدى . فقد دعت السنيورة برتولدى ماريا لحضور حفلة ساهرة فى بيتها . وما كادت تدخل القصر مع ابيها ، حتى وجدت الشيفالييه برتولدى يمسك بيدها ويتأملها بعين تلمع وراء المونوكل بسرور ، وقال لها كلمات غزل وهو يعتصر يدها بين يديه ، وقبلها فى خدها امام الجميع ، وقدمها لاصدقائه ، والكل يبتسم لها وكأنه يعرفها منذ سنوات .

حتى تونى ، ظهر أمامها متوددا ، وقالت السنيورة برتولدى له امامها :

- حذار يا تونى .. فمنافسك على ماريا .. لا يستهان به .

ونظر اليها تونى وقال متوسلا :

ـ اول رقصة ستكون معى ..

وابتسمت له .. وخيل اليها ان سانت تيريز تصنع لها معجزة أخرى .

الفصل الخامس

أصبحت مارياساندرو ، وجها جديدا فى حفلات المجتمع الراقى ، نغمة انثوية جديدة ، تنطلق من حولها كلمات جديدة ، وتعبيرات غزل جديدة ، وتحوم حولها رغبات جديدة . لقد منحها لقاؤها بالملك جواز مرور إلى عالم كانت تعتقد أن دخوله مستحيل على أمثالها . ويبدو لها اليوم أن هذا المستحيل قد تحول الى أمر سهل ميسور .

ومع ذلك لم تسترح لهذا الجديد الذى عرفته ، رغم أنها لاتجد فى نفسها القدرة على مقاومته والابتعاد عنه . فهى تلبى الدعوات الى الحفلات ، وترى ماتراه ، وتسمع ماتسمعه ، ولاترتاح ، ولاتتخلص من شعورها بالغربة . ولكنها تعود ، وتلتقى بتلك الوجوه التى لها وسامة مختلفة ، وأناقة مختلفة ، وتحس فى حماسهم برودا وفى اقبالهم جمودا ، وتحس فى كل الأحوال بنفور لاتدرى كيف تتخلص منه .

حتى تونى برتولدى لم تتصور أنها سترى وجهه كما لم تره من قبل فى خيالها . إنه الآن فى الواقع ، وجه ناعم لزج ، عيناه صارمتان قاسيتان ، بهما حول خفيف .

وقالت لنفسها ، وهى تقابله فى حفلة بعد حفلة : هو الذى يريد أن يفرض نفسه على . وانا التى كنت اتمنى لو أعرفه . وهى رغما عنها تعود اليه ، وتتعرض لمحاولاته أن يقترب منها .

سألها تونى ذات مرة :

ـ لماذا لاتدعينى الى بيتك ؟ أريد ان أزورك ، وأن أشعر بأنك قريبة منى ، أنت تبتعدين ولا أدرى ماالسبب ، وربما تظنين أنى مغرور .. ومدلل .. ولاأريد أن أعيش الا فى أحضان أمى وأبى .. صدقينى .. إنى اريد أن أعيش وأن أشم رائحة الحياة الحقيقية ـ لماذا لاتسمحين لى بزيارتك فى بيتك فى شبرا ؟ إن لى معارف هناك . بعضهم عرب مصريون .

قالها وكأنه يقول .. انظرى كم انا متواضع .. إن الذى يقبل معرفة المصريين وزيارتهم فى شبرا ، لن يتكبر ويرفض التعرف على واحدة من بنات جنسه .

ابتسمت ، ورفضت أن تدعوه .. شتان بين بيت شبرا ، والقصر الذى يعيش فيه آل برتولدى . لابد أنه سأل عنها ، وعرف كل التفاصيل ولكنه لم يفكر فيها ، ولم يرغب فى لقائها ، الا بعد ان سمع بقصتها مع الملك . الفضيحة الملكية هى بطاقة دعوتها الحقيقية الى تونى ، وهى لن تفكر أبدا فى ان تتورط معه ، رغم انها عجزت حتى الآن عن مقاومة دعواته . إنها تستطيع الآن أن تدخل قصر برتولدى كضيفة يرحبون بها . تستطيع ان تنتقل من بيت شبرا الى قصر برتولدى فى شارع المدابغ ، أما المستحيل .. فهو أن ينتقل سكان القصر الى بيت شبرا .

ونظرت حولها ، تتهرب من الحاج تونى ، كل الحاضرين فى الحفل يعرفون بعضهم بعضا ، يتبادلون الزيارات ، ويقيمون الحفلات ، ليس بينهم مشاكل اتصال . أما تونى فيريد أن يقفز من القصر إلى هوة سحيقة ، يدق فيها عنقه ، وهى لاتعرف كيف تحذره ، وربما لايعنيها كثيرا ان تحذره ، لأنها مشغولة بهذا الوضع الذى تجد نفسها فيه ، وكلمات من أمها ، وأحيانا أصوات تهمس فى أعماقها ، إن جمالها قد خلق للصعود من شبرا الى القصر لتكون مع الأغنياء الأقوياء . هذا هو ماقرره لقاؤها بالملك . أن جمالها له الحق فى ان يكون له نصيبه من مجتمع القوة والثراء . هم يقدمون الأموال والقصور ، وهى من الجميلات اللائى يقدمن الجمال .

قال لها تونى ضاحكا وهو يحتضنها ويسير معها فى ممشى القصر ، فى ليلة من ليالى الصيف ، أقام فيها الحفل فى الحديقة التى يحجبها عن الشارع أسوار عالية . أن جمالها يحتاج الى رجل من نسل قوى أصيل ، فهكذا يولد الابطال الذين يصنعون المجد ويحكمون الناس . وقال لها ان جمالها مهم للحياة النبيلة فليس هناك نبل يتفق مع القبح ، وليس هناك جمال يعيش مع الفقر ، ولايوجد بطل غير جميل . ولذلك من حق الفارس القوى الجميل النبيل ان يختطف الجميلة على حصانه الأبيض ، فتكون امرأته التى تلد له النسل القوى الجميل . وقال لها . هذا اهم بكثير من مجرد حب رومانتيكى ، سواء كان عذريا أو شهوانيا .

ابتسمت له ، وجرت مبتعده عنه ، وراقصت أول شاب قابلته ، ولم تنتبه الا بعد لحظة أفاقت فيها من ذهولها ، أن الشاب الذى تراقصه مصرى يبدو أنه من أصل تركى ، ولكنه على أى حال من المسلمين المصريين . الذين تخشاهم ، ولاتعرفهم ، ولقد عرفت ملكهم ، وذكرياتها عنه تثير فى نفسها قشعريرة ورهبة لاتخلو من اشمئزاز . واعتذرت للشاب بأنها متعبة واستأذنت من السنيورة برتولدى أن تنسحب من الحفل ، فأذنت لها ، وأمرت السائق أن يعود بها الى بيتها . وكان تونى يراقبها من بعيد . وعجبت لأنه لم يتقدم منها . فأيقنت أنه غاضب من سلوكها معه .

في الصباح ، كان يوم الأحد ، وذهبت مع ابيها وامها الى سانت تيريز ، وحانت منها التفاتة ، فرأت تونى ، لقد جاء الى شبرا عند حاميتها . وحدث ماتوقعته ، فقد اعترض طريقهم أثناء انصرافهم بعد الصلاة . ورحب به ساندرو ، وتهلل وجه امها التى بدت وكأنها سوف يغمى عليها من الانفعال وقال لهما تونى :

ـ هل تسمحان بأن أمشى قليلا مع ماريا .. هنا ؟ وأشار بيده خارج الكنيسة ، حيث المزارع ، وحقول الأذرة ممتدة حتى الأفق .

كان ترحيب والديها ، أمرا لها ، وخضوعا له ، وسارت بجواره تحميها قبعتها الصفراء ، التى تلبسها فى الكنيسة لأول مرة مع فستان من التيل الأبيض ، له شرائط صفراء فى الصدر وحول الذراعين ، كانت واثقة من أناقتها ومن جمالها . وكان يضايقها هذا الاستسلام الذليل من ابويها ، الذى فضحته الابتسامات والانفعالات الزائدة .

وسمعته يهمس وهو ينظر فى عينيها بقوة :

ـ جئت لأنى قررت ان أختطفك .. من هذه اللحظة أنت لى .

همست فى دهشة وبلا خوف :

ـ ماذا تعنى ؟

قال باصرار :

ـ أعنى أنك لى .

هل يريد الزواج أم هو نوع أخر من الاقتراب منها على طريقة الملك ؟ انها لاتحبه . وكانت تحلم بحب ، فضاع الحلم منذ تلك الليلة مع الملك . كان جسده وهو يضغط عليها ينقل اليها معنى غريبا عن العلاقة بين الرجل والمرأة ، معنى لا حب فيه ، ولكن فيه سيطرة ، وضغوطا ، وأجبارا على الخضوع . وكلمات تونى فيها نفس هذه المعانى ولكنها ليست جسدا ضخما كجسد الملك . إنها تسمع كلماته ، وتدرك معانيها . دون أن تضغط عليها وتجثم فوقها وتكتم أنفاسها .

لم تستسلم لرغبات تونى فى ذلك اليوم وانتهت النزهة القصيرة ، التى لاتسمح حرارة الصيف بأن تطول ، وأعادها فى سيارته الالفاروميو الى باب بيتها ، وواجهت وهى تهبط انظار أولاد سيد افندى ، تجاهلتهم ، وكانوا يرقبون السيارة فى رهبة ، وكانت تعلم أن تونى قد شعر بأن فى عينيها قبولا غامضا ، ورفضا مترددا ، وهى لاتدهش اذا كان واثقا الآن ، أنها قد رضيت به ، ولم تبق الا اجراءات التنفيذ .

وفسرت السنيورة ماتيلدا ماحدث ، بأنه عرض رسمى من جانب تونى برتولدى بالزواج من ماريا . ورأى ساندرو احلامه تتحقق فى نهاية الأمر . وكان موسولينى يغزو البانيا ، وغدا سوف يدخل مصر ، وستكون ابنته زوجه للشيفالييه تونى برتولدى .

وعندما قالت ماريا ، ان تونى لم يفاتحها فى أمر الزواج ، قالت لها ماتيلدا ان تونى قام من جانبه بكل الخطوات المطلوبة منه ، وان عليها ان تشجعه . فكل تأخير ، هى السبب فيه . ولم تقل لها ماريا ، انها تشعر ان تونى لايريد الزواج منها ، وكل مايطلبه ان تكون عشيقة له وإنه يتصرف بجراه ووقاحة ، لأنه يعاملها هى وأسرتها ، كما لو كانوا من الخدم أو العبيد ، وهو لن يتزوجها إلا إذا خاضت معه مغامرة طويلة المدى ، كلها حياة دنس وفضيحة ، حتى تنجب منه ولدا جميلا يرضى عنه ، ، وعندئذ قد يفكر فى الزواج منها ويعترف بأبوته للولد وهذه كلها مخاطر غير مأمونة .

خشيت ماريا الا تفهمها أمها ، أو لاتصدقها ، وخشيت اكثر ان ترضى بالمغامرة ، ولذلك فضلت الا تبوح بمخاوفها ، وان تتحمل اللوم من أمها . حتى كان ذلك اليوم الذى ذهبت فيه ماريا لزيارة احدى معارفها ، اسمها جانين تسكن فى شارع قطة . وبينما هى تعبر الشارع ، رأت الفريد يوقف دراجته البخارية ، ويتقدم منها لتحيتها ، وفوجئت بخضوع ورهبة ، وتملق فى عينيه ، كما لو كانت سيدته ، كأنها من عالم آخر غير عالمه ، نظرت اليه وهى تفكر ، هل هذا هو ماكان يبدو على وجهها أيام زمان ، عندما كان يراها تونى ، وهى تدخل القصر ، كواحدة من العاملات تساعد الحلاق الذى يتولى تصفيف شعر السنيورة أمه . هل هذه هى نظراتهاعندما كان يصادفها تونى ، فيمضى فى سبيله كأنها غير موجودة ، نكرة من النكرات ، لا قيمة لها فى نظره . سمعت الفريدو يعتذر فى ذلة . لو كانت معه السيارة لأركبها معه ، إنه يعرف أنها ركبت سيارة تونى الالفاروميو . حضور تونى برتولدى الى سانت تيريز أصبح أمرا شائعا يتحدثون به فى كل بيوت شبرا . نفس الشىء حدث مع كوستا ، أصبح يوجه اليها التحية ، وهو ينحنى ، وعلى شفتيه ابتسامة لاتستريح لها . ابتسامة فيها مكر وخوف . ابتسامة مريبة على أى حال .

سمعت الفريدو يسألها فى أدب شديد ، ونفاق أشد ، إذا كانت تريد أية خدمة ، يكفى أن تأمر ليطيع . شكرت له شهامته ، أو نفاقه ، وفى نفس اللحظة اتخذت قرارها بأن تقبل مايقدمه لها تونى قبل فوات الأوان . قبل ان ترتد الى هذا الهوان . انها الآن مازالت قادرة على ان تنتقم لجميع الاهانات التى كانت تطاردها ، مع ذكرياتها القديمة عن بيت برتولدى .

عندما يتحدث اليها تونى ، يتحول الحلم الى حقيقة ، وجهه يشع بالحقيقة ، لقاء لا حب فيه . لقاء مسئوليات ومصالح ، لقاء أقوياء ، لقاء متعة ونشوة بالوجود ، كل شىء آخر ليس حقيقيا ، كل ماعدا القوة تضييع للوقت وتبديد للجهود . حتى رجولة تونى لم تعد تهم ، الأهم هو الشكل ، الديكور ، القصر ،

الفخامة والأبهة . القوة تحتاج دائما الى الشكل . الى الاطار الذى يحميها . الى كنيسة تجسدها للعين . القوة والنبل هما المعنى الذى تتعرف عليه كلون جديد من الحب ، درجة أعلى فى الحب ، كما يعرفه رجل يشتهى امرأة ، أو امرأة تحلم برجل .

وذهبت مع تونى الى الشقة التى أعدها لمثل هذا اللقاء فى شارع المناخ ، ليس بعيدا عن قصره . وقال لها وهو يحتويها بين ذراعيه ، أنه كان واثقا من انها ستأتى ، لأنها خلقت له ، كما خلق لها .

ومرة أخرى سألته :

ـ ماذا تعنى .

قال :

ـ أحبك .

قالت وهى تنظر فى عينيه بقوة .. وبلا تردد . فكلمة الحب لها معنى غير ذلك المعنى القديم الذى تبددت فيه أحلامها :

ـ تريد أن تتزوجنى ؟

سألته وهى لاتنتظر إجابته .. سألته لأنها قررت أن تتعامل معه ، بالقيم التى تسود عالمه ، لن تعود الى عالم الفريدو الذليل .

سمعته يهمس :

ـ سوف نتزوج .. لابد أن يأتى يوم .

ضحكت قبل ان يكمل وقاطعته ساخرة :

ـ لابد أن يأتى يوم .. وتعترف .

نظر اليها مرتبكا .. كان لايفهم سخريتها ، وماذا تخفى وراءها وسألها :

ـ ماذا تعنين ؟

هزت كتفها . ففرح بأنها لاتصر على شىء وتهز كتفها استهزاء بكل شىء . فعانقها . هذا النوع من السخرية الهادئة يريح ولا يثير مشاكل لامبرر لها . ورقص معها على انغام لحن ينطلق من « بيك أب ». وكانت الاغنية تقول .

« كم هو جميل »

« أن تلعب البيانو »

« على ظهرى ! »

وكانت أصابعه تعزف على طول ظهرها . ليس من الضرورى أن يكون بينهما حب . الخطيئة شىء والحب شىء آخر ، أما الحب الساذج فقد تبددت أوهامه ، وطاشت سهامه أيام مراهقتها مع اولاد اختفوا مع ماريو الذى تمزق جسده أشلاء فى الحبشة . انتهت تلك الفترة من حياتها ، لم تعد قادرة على أن تستسلم

لمشاعر تجتاحها ، فتلهب عواطفها بالاشجان . انتهت أشجان المراهقة وانفعالاتها ، ماتت مع مشهد الفريد في شارع قطة . الآن كل شيء واضح ومفهوم ومحدد ، له أول وله آخر . كل مرة تلتقي بها بتوني تشعر بمزيد من عدم الرضا ، وتبتعد اكثر وأكثر عن الحب . وتعتم اكثر واكثر الذكريات القديمة عن العواطف . الذكريات البلهاء التي لاتحزن على ضياعها . ذكريات الارجوحة في النادي ، وهي تطير في الفضاء العريض ، والهواء يجتاحها ويدغدغ جسدها بنشوة صبيانية فجة . ذكريات الرقص حتى تسقط اعياء من النشوة بالموسيقى تنساب في جسدها كما لو كانت رحيقا ساحرا من اللذة . ذكريات فستانها الجديد وقبعتها الجديدة وهي تدخل الكنيسة صباح الأحد . ذكريات الراحة بعد ان اعترفت وغسلت ذنوبها وحصلت على غفران الرب .

بعد شهور من علاقتها بتوني تحول وجهه الى صورة مرسومة ، أو تمثال منحوت من لحم جاف ، لموقف متكرر ، تصرفاته خالية من أي معنى . كل شيء رتيب ممل ، وماكانت تظن انه أدب وسلوك ارستقراطي عريق ، تكشف عن ردود فعل اتوماتيكية تصدر عن توني كما لو كان انسانا ميكانيكيا . وماكانت تتعامل معه على أنه أناقة ورقة وظرف تكشف عن حركات محفوظة لاتتغير ، وكلمات معادة لاتتغير .

لم تعد تجد مايعجب به ، أو حتى يثير فضولها ، وجهه يزداد برودا وملامحه تزداد قسوة ، ورائحة عطر « بور أن أوم » التي يتعطر بها هي أقوى مافي شخصيته ، ملابسه الانيقة ابرز سماته لايختلف عن مانيكان يرتدي بدلة . مانيكان ، دمية من خشب في فترينة . جسده بلحمه وعظامه وشحمه لايفترق عن جسد خشبي أو معدني ، كل شاعريته ، كل عواطفه كل علاقاته الحميمة ، مجرد أشكال مرسومة بعناية تثير الحنق .

عندما تتركه تبتسم لنفسها ، ساخرة من نفسها ، وهي تتذكر صوته الرتيب وانفعالاته الميكانيكية ، وكلماته المكررة وكأنها تطاردها ، تلاحقها ، حتى تعود اليه كالمعتاد ، يوم الاثنين القادم . كأنه موعد مع الدكتور فيتوري طبيب الاسنان .

هل كل مابقي من الحياة ، هو هذا الشيء المصنوع ؟ لهفته التي كانت تظنها لهفة ، لهجته الآمرة التي كانت تتوهم انها آمرة لم تعودا لهفة ولا أمرا . أصبحت مجرد مناظر تتفرج عليها ، وتدهش لها . لم تعد تخشاه ، واذا كانت في لحظة ما رضيت به لتخترق حصار شبرا وتدخل القصر فقد وصلت الى لاشيء .

ارادت ان تتخلص من هذا كله . وفكرت في أن تلقي بالمصيبة كلها على ابويها وعليه ايضا ، لقد ضاقت بالسؤال عن متى تتزوجه وهما يعرفان الآن ، انها تخرج

معه ، وتسهر معه ، وقبلا أنها خطيبته وقال الجميع إنها خطيبته ، رغم ان أحدا لم يقل هذه الكلمة رسميا ، ولاتونى ، ولاالسنيورة أمه ، ولاأبوه . وفكرت فى أنه قد أن الاوان ليواجه الموقف مع امها .

وسألته :

ـ لماذا لاتأتى لزيارتنا فى بيتنا .

قال بوقاحة . وكأنه يعرف كل ماتفكر فيه :

ـ قد يفكران فى اننا قررنا ..

وسكت .

نظرت اليه تتحداه أن يكمل . فقال بلباقته المصنوعة :

ـ لانستطيع ان نتعجل الأمور .

قالت وهى تتماسك بشىء يخرجها من هذه الرتابة التى تحاصرها :

ـ اننا لن نظل هكذا الى الأبد

ثم عدلت قولها فقالت :

ـ اننا بشر لانعيش الى الابد .

قال لها فى حنان مصنوع باتقان ، وبلهجة مدروسة بعناية فائقة :

ـ لاتقولى هذا ياحبيبتى ..

وأمسك بيدها وضغط عليها ، وقبلها ، وجذبها اليه-وقال بحرارة ممتازة الصنع :

ـ هيا بنا نخرج .

قالت :

ـ لا .. لن نخرج قبل ان نتكلم .

قال بحزم يجيده :

ـ سوف نتكلم .. وفورا .. ولكن ليس فى هذا المكان .

أدرك ان عليه ان يقوم بعمل ما . أن يقدم على شىء يواجه به الخطر فى عينيها . فانطلق بسيارته الالفاروميو فى الطريق الى الاسكندرية . بلا استعداد ولاحقائب . واحتجت ، ولكنها فى قرارة نفسها ، كانت تستسلم للمغامرة التى كسرت الرتابة . وسهرا ورقصا فى سانت لوتشيا ، وعادا الى القاهرة فى الفجر .

كان الكلام الخطير الذى قاله ، أن الوقت غير مناسب للزواج ، لان الحرب توشك ان تندلع ، ولو حدث ذلك فسوف يعتقل الانجليز كل الايطاليين فى مصر . وابوه يريد ان يعود فورا الى ايطاليا قبل فوات الاوآن ، ولكن والدته ترجىء العودة ، لانها تخشى أن يتورط ابنها فى الحرب . وهى تأمل ان يتراجع الانجليز امام تهديدات هتلر . كلام خطير . لايريد أن يموت مثل شقيقها ماريو . إنه من

عالم السادة الذين يرسلون الآخرين الى الحرب . انه من عالم القادة النبلاء . وعليها ان تنتظر حتى يأتي الوقت المناسب . الذى تثق فى انه لن يجىء ابدا .

قالت لنفسها : هذا الجهد الذى يبذله لن يستمر ، وتوقعت النهاية وكان توقعها هو الذى ساعدها على أكتشافها باسرع مما كانت تتوقع

كانت تمر أمام العمارة فى شارع المناخ ومعها صاحبتها جانين فرأت سيارته الالفاروميو واقفة أمام باب العمارة . اعتذرت لجانين بأنها نسيت ان تذهب الى الطبيب فيتورى ، لتسأله عن دواء سبق ان وصفه لأمها وضاعت الروشتة . وابتعدت حتى اطمأنت الى غياب جانين عن المكان وعادت الى العمارة وصعدت فلما اقتربت من الشقة سمعت أصواتا . ودقت الجرس فسمعت جلبة ، ثم اختفت الاصوات واستمرت تدق الجرس بعنف وإصرار لبعض الوقت . كانت واثقة أنه بالداخل وهبطت وبحثت عن البواب .

قال لها إنه رآه يصعد . ولم يقل لها شيئا بعد ذلك ، هل كان معه أحد ؟ عينا البواب تكذبان ، وهو يدعى أنه لم ير شيئا ، رفعت رأسها الى العمارة .. نوافذ مفتوحة ، ونوافذ مغلقة ، ورأت وجوها تطل عليها من نوافذ كثيرة ، وجوه نساء أو رجال ، وبينها وجوه أطفال . الدنيا تتفرج عليها . وكانت نافذة شقته مفتوحة وشعرت بغيظ وبرغبة فى القىء وهى تبتعد ولكنها عادت اليه فى موعدها ، وجدته ينتظرها .

اعترف لها بأنه كان فى الشقة فعلا . ولكنه كان نائما . اذا كان هناك صوت ، فهو جلبة خادم جديد ، طلب إليه ان ينظف الشقة ، وأمره الا يفتح الباب لاى سبب ، لينام ويرتاح استعدادا للقائها .

رفضت ان تمنحه فرصة للتمادى فى الكذب ، وبذلت جهدا حتى لاتثور ولاتنفعل . اول درس تعلمته من هذه الطبقة الارستقراطية هو المحافظة على المظهر . وضبط الانفعالات و السيطرة عليها . القضية الآن ليست قضية إثبات أرستقراطيتها . إنها تريد أن تؤكد له . انها حرة . قادرة على أن تسيطر على نفسها ، قادرة على أن ترسم الشكل المناسب ، لتنجح فى أن تستمع اليه فى هدوء كامل ، وبرود متقن ، فقد قررت ان تقطع صلتها به .

الفصل السادس

قالت السنيورة ماتيلدا لزوجها وقد عاد الى البيت في المساء ، وفرغ من عشائه ، حساء المانسترونى :

- ماريا لن تتزوج تونى .

رفض ساندرو أن يفهم ما سمعه ، وكانت ماتيلدا متجهمة الوجه ، وكان صوتها غاضبا ساخطا ، ونظراتها تلوم ساندرو ، فهو المسئول عن فشل المشروع الذى بدأ بتلك الليلة التى ذهبت فيها ماريا للقاء الملك .

وقضى ساندرو وقتا قبل أن يفهم ، فلما خيل اليه أنه فهم ، وعرف أن ماريا هى التى قطعت صلتها بتونى ، قرر أن يوجه غضبه الى هذه الفتاة المجنونة التى عجزت عن المضى إلى آخر الشوط ، رضى بأن يسكت ، وأن يرقب علاقتها بتونى ، لأنه واثق من أن نهاية العلاقة هى الزواج . لا أن تكون ماريا مجرد عشيقة يتسلى بها تونى برتولدى لبعض الوقت . ماريا لن ترخص فى سوق البنات الى هذا الدرك الحقير ، إنه ساندرو العظيم الذى تتهافت عليه أرقى السيدات ، إنه صديق الأميرات إنه أبو ماريو البطل ، إنه جندى فى جيش الدوتشى ، لديه خطاب شخصى من الدوتشى ، ومعه وسام باسم ماريو ، إنه صاحب الأحلام الكبرى ، فكيف تجرؤ هذه البنت الطائشة على ان تهدم كل شىء فى لحظة طيش . لن يسمح لها بهذا حتى لو قتلها .

وسأل : أين هى ؟ .. إذا كانت لاتقضى سهراتها مع تونى ، فأين تسهر الآن ؟ .

قالت له ماتيلدا :

- إنها ذهبت الى السينما مع نينا وكوستا . ها هى تعود الى العلاقات القديمة ، غدا سوف يعود الفريد بدراجته البخارية ، غدا سوف تنتهى أحلامه عند ولد من أولاد النادى . هل هذه هى نهاية مساعيه ، أتريد ماريا أن تحطم أباها وهو حى ، تحرمه من رؤية احلامه وهى تتحقق ، بعد أن مضت فى الشوط حتى نهايته . إن السنيورة برتولدى تعرف علاقة تونى بماريا . قالت له ان هذه هى أول مرّة يبدو فيها على تونى أنه جاد فى علاقته ولم تبد اعتراضا ، ولم تطلب

إليه ان يتدخل . بالعكس اصبحت اكثر توددا ولطفا معه ، وعاملها كما لو كانت حماة ماريا المقبلة ، وحكت له عن مغامرة تونى وماريا عندما سافر بها الى الاسكندرية ، وعادا فى الفجر . وكان الشيفالييه برتولدى يقابله بابتسامة ، وقد يتوقف ليبادله كلمات رقيقة مجاملة . بل تحدث معه عن الحرب المقبلة ، وقال له أنه كلما قرر السفر الى ايطاليا ، طالبت السنيورة بتأجيل السفر من أجل تونى . وفهم ساندرو أن الذى يبقى تونى فى مصر هو ماريا ، فما الذى يعطل ذهابه الى روما عاصمة الدوتشى ومجد القياصرة إلا إذا كانت هناك مهمة بالغة الأهمية مثل هذا الحب الكبير بين تونى برتولدى ، وماريا ساندرو . هل جنت ماريا حتى تقضى على هذا الحلم ؟ .

قالت ماتيلدا تشرح له ، وهما فى انتظار عودة ماريا من السينما :

ـ تقول إنها لاتحبه .

صاح ساندرو :

ـ وهل هذا هو وقت الحب .. إننا نريد أن تكون لها أسرة .. بيت .. نسب .. أولاد .. المجد والثراء أمامها .. كيف ترفضهما .

ولما جاءت ماريا ، واجهها ساندرو بكل غضبه .

قالت له بهدوء أفزعه :

ـ بابا .. أنا لا أحبه .. وهو لا يحبنى .. لقد قضى معى بعض الوقت .. كما يقضيه مع بنات أخريات ..

صرخ ساندرو محتدا :

ـ ما معنى هذا .. كيف تقبلين أن تضعى نفسك هذا الموضع ؟

قالت فى هدوء :

ـ أنا لم أقبل .. لقد وجدت نفسى فيه .. والآن خرجت منه .

صاح ساندرو :

ـ لاأفهم كيف تتخلين عن تونى بهذه السهولة .. انه برتولدى .. هل تعرفين معنى هذا .. إنه مال ونفوذ وقصر ..

قالت فى هدوء :

ـ هذا الصباح .. ذهبت الى سانت تيريز .. وعدت ولا صلة لى به .

انفجر ساندرو مهددا :

ـ بل ستعودين إليه .

ولكن محاولاته ذهبت سدى ، لم يفلح صراخه ولا شتائمه ، ولا تلويحه بيديه مهددا ماريا بالضرب ، ولا عندما فقد أعصابه تماما ، فانهال عليها ضربا ، حتى تكومت أمامه ، باكية فى صمت . وكان ينظر إليها فى حقد ، لايدرى من أين

جاءتها هذه السكينة رغم مالاقيه على يديه ، وتمنى لو ماتت ، فقد كانت تجسد أمامه ، عقبة لطموحه ، ونهاية لأحلامه التى عاش بها . كان هدوءها الغبى يبتلع كل شىء ، ويصمد أمام كل شىء .

ويبدو أن سانت تيريز غضبت من ساندرو وتصرفاته مع ماريا ، وهذا هو ما راود ماتيلدا ، عندما انهار ساندرو ، وسقط مريضا ، وقد أصابته رعشة فى يديه ، انتشرت بعد ذلك فى جسده كله وكان به مسا كهربائيا . واضطر الى الانقطاع عن العمل ، ولم تفلح صلوات ماريا وتوسلاتها لدى سانت تيريز فى شفاء ساندرو وسرعان ماتخلى عنه الجميع . لم يعد يدخل قصور الاميرات ، وعجز عن الذهاب الى قصر برتولدى ، ولم تكلف السنيورة برتولدى نفسها بأن تسأل عنه بعد أن علمت بمرضه . وبعد قليل نضبت موارده المالية ، وانقطع سيل الهدايا والعطايا التى كانت تتدفق عليه ، وكان عليه أن يواجه أزمات متلاحقة ، بعد أن اختفى إيراد صالونه فى جيوب عماله الذين سرقوه ، وكان من المستحيل أن يذهب الى الصالون ويقف بين زبائنه ويده ترتعش ويتحمل نظرات الاشفاق والسخرية ويرى بنفسه ، كيف ينفض زبائنه من حوله .

وطافت السنيورة ماتيلدا على قصور وبيوت الزبائن ، فلم تستطع الوصول الى معظمهم ، فمثل هذه القصور لاتفتح ابوابها للناس وكان ساندرو لايدخلها الا ليقوم بعمله ، والآن أغلقت الأبواب ، وأصبحت مقابلة الاميرة ، او السيدة أمرا مستحيلا وعوملت ماتيلدا كشحاذة ، جاءت تتسول ، وهذا من اختصاص موظفين أو خدم يواجهون السائل بما يتراءى لهم ، فقد يعطفون عليها ، أو ينهرونها ، واذا عطفوا عليها ، فلا تحصل السنيورة ماتيلدا الآ على بضعة قروش ، لا علاقة لها بالاستقبال الذى كان يلقاه ساندرو ، وهو يقتحم القصر أو البيت واثقا من نفسه ، يتوقع لهفة للترحيب به فيجد ماهو اكثر من اللهفة .

وقالت السنيورة برتولدى لماتيلدا ، بعد أن رضيت أن تقابلها ، وجعلتها تنتظر ساعتين ، حتى يفرغ الحلاق اليونانى قسطنطين من تصفيف شعرها ، استعدادا لحفل المساء :

ـ الأفضل ان يبيع ساندرو صالونه .. وعندما سمع قسطنطين أنك تطلبين مقابلتى ، فاتحنى فى الموضوع .

وقالت السنيورة برتولدى بعد أن حدقت فى وجه ماتيلدا الحزين :

ـ وعدنى قسطنطين أن يحتفظ باسم ساندرو على الصالون .

شعرت ماتيلدا وهى تسمع هذه الكلمات ، أن ساندرو قد مات ، وكادت تطلق عويل الحزن على وفاته .

أية اهانة اكثر من هذا . انها لا تستطيع أن تخبر ساندرو بما تسمعه ، لامعنى

لأن تشيعه الى مثواه الأخير بحسرة تقضى على كل لحظة فرح او هناء عرفها طوال حياته ، لو كانت ماريا قبلت أن تحقق لساندرو أحلامه ، لوكانت الآن زوجة لتونى برتولدى ، لكان لهم شأن آخر .

وسمعت ماريا أمها تبثها خواطرها اللوامة ، فضاقت نفسها بما تسمعه ، وضاقت بكل ماحولها ، فكأنها مطاردة ومنبوذة ،لايريدها أحد .

وقال لها كوستا :

ـ لامفر من أن تقبلى العمل الذى عرضته عليك .

نعم لامفر من أن تقبل . واستطاع كوستا ان يفى بوعده ، واصبحت بائعة فى قسم العطور بمحلات « ب » .

وبعد شهرين من بدئها العمل مات ساندرو . وكان قد أصابه شلل ، ولايكاد يفهم أويدرك شيئا مما حوله ، فلم يعلم أن ماريا قد التحقت بعمل ، وهى من ناحيتها تجنبت أن تدخل عليه بملابس البائعات ، من التيل الأزرق ، والشرائط البيضاء حول الرقبة والخصر وأطراف الكم .

وباعت ماتيلدا صالون ساندرو ، وأودعت النقود فى البنك الايطالى ، وديعة تعيش بأرباحها بقية أيامها على ظهر الدنيا عجوز تقاوم الزمن بحياة تدور فى فلك مرسوم . بين بيتها والكنيسة فى الصباح ، ولعب الورق بقروش قليلة فى بيت الزا ، أو فى بيت كوستا حيث تلعب مع أمه وبعض الجارات ، الكونكان أو الكانستا . وخارج هذه الدورة بين البيت والكنيسة والكونكان لم يعد يهمها شىء . وقد تسمع أخبارا عن أحداث جسام أو كوارث وقد يشتد الحديث عن الحرب ، واحتمال تعرض الايطاليين لمضايقات من الانجليز ، ولكن كل هذا أصبح خارج دائرة اهتمامها ، لم تعد تعلق آمالا كبيرة أو صغيرة على احلام يتداولونها من حولها .

كل هذا قد مات وشبع موتا مع ساندرو ولم تبق إلا فوائد الوديعة تحصل عليها كل ستة شهور ، بالكاد تكفى لأن تسمح لها ألا تجوع ، اما ما اكثر من هذا فلا ضمان له ، واكثر من هذا فقدت الأمل فيه ، ولم تعد تهتم به .

أما ماريا فقد تحولت حياتها ، وتغيرت أحوالها ، وهى تقبل على ذلك الجانب من الحياة الذى انفتحت ابوابه أمامها بدخولها سوق العمل . واستسلمت لزميلاتها البائعات الايطاليات واليونانيات . يطلبنها لتصاحبهن للرقص ، حيث يشربون الشاى ويأكلون الجاتوه ، أو يشربون البيرة ويتناولون البيكاتا والشاتوبريان ، وكلها أنواع من اللحوم الفاخرة ، لن تتاح لها الفرصة لتتذوقها وتتمتع بها فى بيتها . ثم هناك متعة الرقص فى محلات ونواد ليلية فى شارع الهرم وهليوبوليس حيث تعزف الموسيقى فرق ممتازة من الموسيقيين ، بعضهم

جاء من ايطاليا أو فرنسا ، وبعضهم جاء من الاسكندرية ، ووجودهم ووجود الجرسونات وأصحاب المحلات من اليونانيين والايطاليين فيه حماية كاملة لهن من الخطر الذى قد يتعرضن له من أولئك الذين يدفعون مصاريف هذه الحفلات ، ويسددون فواتير الطعام والشاى ، ويتولون مهمة المواصلات وهم شبان مصريون ينفقون ببذخ ، من أبناء عائلات مصرية كبيرة .

كانت ماريا تتذكر كلمات أبيها عن هؤلاء المصريين . ينفقون أموالهم بسهولة ، ويفلسون بسهولة . الواحد منهم مستعد لأن يفقد ثروته ليحوز رضاء فتاة شقراء أجنبية تبتسم له . يحبون الشقراوات ، والعيون الزرقاء ، وانفعالاتهم هوجاء ، وقدرتهم على الفهم محدودة .

ودخلت ماريا تجربتها الأولى فى عالم المصريين ، العالم الذى ينتمى اليه شبان يختلفون تماما عن شقيقها ماريو ، أو حتى الفريد ، أو كوستا ، وطبعا لاصلة لهم بتونى برتولدى ، الذى يعيش فى عالم خاص به ، إن الشبان المصريين لاعلاقة لهم بشبان يرتدون القمصان السوداء ويركبون الدراجات البخارية ، ويعملون كثيرا ولايستريحون الا يوم الأحد ، ويدخرون المال ، للسفر الى حيث ينتظرهم الدوتشى ، ليقودهم جيشا سوف يعود يوما ليحكم هؤلاء المصريين . كانت تتوقع يوما ما ، قبل حكاية الملك ، وتونى ، أن تتزوج واحدا من شبان الدوتشى ، ولكنهم منذ أن قتلوا ماريو ، وهى لاتتحمس للسفر حيث يموت العرسان ، حتى لو كان موتهم طلبا للمجد ، وبعد أن مات أبوها ، أصبحت أقل حماسا للتفكير فى أى شىء ، وهكذا وجدت نفسها وجها لوجه امام الشبان المصريين .

وطلبت ماريا إلى الفريد أن يصحبها فى خروجها مع صديقاتها العاملات مع الشبان المصريين ، وقد عرفت أن الدعوة مفتوحة ، وان وجود الفريد لن يؤثر فى شىء وسوف يدفعون مصاريفه بلا تردد . وفوجئت ماريا بأنها لم تبذل جهدا لاقناع الفريد بمصاحبتها ، بل كان مسرورا غاية السرور ، لأنه سيذهب الى ملهى الاريزونا ، وسيأكل الطعام الذى يعده السنيور لويجى جاره فى شارع قطة ويقال إنه ابرع من يقدم الأوسوبوكو مع الأرز بالزعفران . ولا مانع لديه أن يأكل ويشرب على حساب هؤلاء المغفلين .

ولكن حال الفريد تغير ، وهو يواجه الشبان المصريين ، كان شديد الأدب معهم ، وكان يجلس منزويا ، ولم يجد بسهولة فتاة ترقص معه ، فكلهن مشغولات بالرقص مع المصريين ، وكانت ماريا تسألهم لماذا لايخرجون مع بنات مصريات ، فقالوا لها أن المصريات اللاتى يرقصن مع شبان محصورات فى عائلات محدودة ترضى بأن تقلد الاجانب فى بيوتها ، وفى حفلات خاصة اما

بنات العائلات المصريات فلا يرقصن . ولم تسألهم لماذا أنتم تقلدوننا ، وكانت تبتسم فى قرارة نفسها ، عندما تتخيلهم كالقردة يقلدون الشبان الايطاليين ، وشاركت ماريا صديقاتها فى التهام الطعام الشهى مع الشراب الجيد فى تلك الاماكن بأسعارها الملتهبة .

وكانت البنات يطمعن فى هدايا غالية ، ونشأت بينهن منافسة على التعرف على الشبان أصحاب السيارات الأفخم والأقوى والأسرع . وتتنافسن على الدخول إلى مطاعم ونواد خاصة ومحرمة على الآخرين ، فما كانت الواحدة تحلم بدخول نادى محمد على أو نادى السيارات أو الجزيرة الآ إذا تعرفت على شاب ابوه رئيس وزراء أو ينتمى الى اتراك يصاهرون امراء العائلة المالكة ، كان الثمن الذى تدفعه الواحدة لتكسب المنافسة ، قبلات يختلسها صاحب السيارة ، وعناق . ولكن الأمر لايصل الى أكثر من هذا ، لأنهن واثقات أن هذا الطريق لن يؤدى الى زواج ، ولا الى علاقة مفيدة ، وأنهن عائدات الى اولئك الشبان المشغولين بكسب النقود ، وتقول الأخبار المفزعة أنهم سوف يضطرون الى خوض الحرب فى أية لحظة . فإذا ذهبوا الى ميادين القتال ، فلن يبقى الا هؤلاء الشبان المصريون ، المسلمون ، او الاقباط ، واكثر هؤلا الشبان الأقباط ثراء ، من الصعيد . شديدو التزمت ورغم أنهم مسيحيون ويترددون على كنائسهم ، الآ أن ماريا كانت تشعر بغربة نحوهم اكثر من شعورها بالغربة مع اولاد الاتراك المسلمين .

واحيانا كان السؤال يفرض نفسه على ماريا رغما عنها ، هل ترضى أن تتزوج شابا مصريا ، مسلما أو قبطيا ، فترتجف من غرابة الخاطر ، ومن وقاحة اقتحامه لها. كأنه خاطر جرثومى ، يسبح فى جو هذا البلد ، والذى يصاب به ، يشعر بدوامات وضداع فى رأسه . ولكنها واثقة أنه لن يمسها سوء ، ولن تضطر الى هذا الهوان ، فوق ما سبق ولاقته من هوان ، ومع ذلك فأحيانا تتذكر اباها وجسده يرتجف ويداه ترتعشان حتى الموت ، فيخالجها شعور بالغضب والتحدى ، لهذه الحياة التى هى خدعة ، فليس فيها شىء له قيمة ، أو شىء تستريح له . ليس فيها ايطاليون أو مصريون ، كاثوليك أو مسلمون أو أقباط .. الكل باطل وقبض الريح .

ومع ذلك مازال الخطر قائما ، ان تسقط مريضة بالجراثيم السابحة فى الجو ، فتجد نفسها رغما عنها متورطة مع واحد من هؤلاء الشبان المصريين ، هل يمكن هذا ؟ وتتعرض للوقوع فى حب شاب مصرى ، هذه هى المخاطرة غير المأمونة العواقب ، والتى يجب أن تتحصن ضدها حتى لاتدخل تجربة غالبا ماتتحول الى كارثة .. ويكفى ماخرجت به من تجربتها مع تونى . فقد علمتها الكثير .. وهى حين ترى سيارة المصرى تتذكر سيارة تونى . وتسأل الى أى مدى ، تقوم الصلة بين

الايطالى الارستقراطى ، والمصرى الهمجى الثرى ، على اساس أن كلاهما يملك سيارة فاخرة . وكلاهما ينطلق بسيارته الى حيث يشاء ، وقتما يشاء ، والى جواره بنت شقراء أو سمراء . هل تكون علاقة السيارة أقوى من علاقة الوطن ، أقوى من ايطاليا ومصر ، وهل تكون أقوى من علاقة الدين ، أقوى من المسيحية والاسلام . هل تكون أقوى من علاقة الحضارة أقوى من تقدم أوربا وتخلف الشرق .

وحدث ذات مرة أن فوجئت بوجه شاب مصرى أسمر ، طويل كان بين مجموعة من الشباب الأثرياء ، وقد ذهبوا يوم أحد الى ضيعة واحد منهم بالقرب من القناطر الخيرية . وكان الشاب فقيرا فى مظهره ، ملابسه بالية ، وكانت له عينان قويتان ، وابتسامة مستفزة متحدية . وكان لايعنيها أن تلتفت اليه ، فهو لايتحدث مع أحد ولايطلب واحدة من البنات الى الرقص . وبدا وسط الشبان الآخرين ، كما لو كان تابعا لهم ، أو أنه يعتمد عليهم فى معاشه ، ولكنه لايأخذ مكانا منزويا ، ولايكف عن التفرج على مايحدث . وقالت لنفسها : إنه نوع من الشبان يدور فى فلك الأغنياء يؤدى لهم خدمات ، وقد يساعدهم على المذاكرة أو أى شىء آخر ، وكانت ماريا مجهدة من الرقص حول حوض السباحة ، فاستلقت على ظهرها مرتدية المايوه الأحمر الذى ساعدها كوستا على أخذه من المحل بنصف الثمن وبالتقسيط من مرتبها ووضعت نظارة شمس على عينيها ، وحاولت النوم ، ولكنها وجدت نفسها ترقب ذلك الشاب الأسمر . كان يبدو واثقا من نفسه ساخرا من كل مايراه ، ورأته يتثائب ، وجاء صاحب الضيعة ، وسأله :

- الن تخرج من عزلتك ياكريم ؟.

فهز الذى اسمه كريم كتفه وقال ساخرا :

- أنا هكذا مبسوط .

وتركه صاحب الضيعة . وشعرت بغيظ نحو هذا الشاب ، وحانت منه التفاته فى اتجاهها ، وبدا لها أنه يتأمل جسدها العارى ، فنزعت نظارتها عن وجهها وصاحت به بلهجة كلها اشمئزاز :

- هل تظن أنى فترينة ؟ .

نظر اليها فى ثبات وقال :

- لاتكونى عبيطة ...

ونهض وأعطاها ظهره . مبتعدا وتركها تغلى من الغيظ . بعد قليل قادتها قدماها إلى مظلة خشبية يجلس تحتها شبان مع زميلاتها ، ولما اقتربت ، رأته يقف ويبتعد فى هدوء . وانشغلت بالحديث الذى تعرف كيف تجذب به انتباه الشبان المصريين ، وتفرض عليهم أن يستمعوا اليها ، وان يعاملوها كواحدة من

بنات الطبقة العليا ، وأنها تتفضل عليهم بأخبار عالمها المسحور . كانت قادرة على أن تروى عشرات الحكايات عن اميرات لهن حكايات أشبه بالاساطير مثل تفاصيل حادث انتحار ضابط الفرسان العاشق ، الذى دخل حجرة فى نادى الفروسية وأطلق على رأسه الرصاص ، وسقط ميتا ، لأنه يئس من حب أميرة رفض الملك أن يزوجها له ، كانت تروى تفاصيل شاهدها ابوها بعينه ، كما لايعرفها أقرب الناس الى الشخصيات الكبيرة موضوع الحكاية . وهكذا تعرفت ماريا على اولاد باشوات كانت لهم ، او مازالت لهم . مناصب كبيرة فى الدولة ، وأغلبهم مازالوا طلبة فى الجامعة ، لايهتمون كثيرا بسرعة التخرج . وكانت تعاملهم جميعا كما لوكانوا شخصا واحدا . فكلهم مصريون . وكلهم شباب ، وكلهم أصحاب عادات واحدة ، ولهم طابع واحد ، والكل تعامله بحيطة وحذر ، وتتوقع مقدما تصرفات تصدر عنه ، ولا تصدر الا عن هذه العينة من البشر . وما كانت تقف كثيرا عند الاسماء . مصطفى ، ابراهيم ، نجيب ، رمسيس ، كان الأهم من اسماء البشر ، اسماء السيارات الدودج والمرسيدس والبويك ، وكان الأهم من أسماء البشر أسماء النوادى والملاهى التى يستطيعون دخولها . وكانت ماريا تتقبل مغازلاتهم ، وتسمح لهم بالعناق اثناء الرقص ، أو اختلاس قبلة كلما سنحت فرصة ، وان ابدت انزعاجها ، وقد يحيط صاحب الدعوة خصرها بذراعه ، او يضمها اليه بيد وهو يحرك « الدركسيون » باليد اليسرى . وكانت على استعداد دائما لأن توقف أى شاب مصرى ، مسلما كان أو قبطيا ، عند حدود لايتعداها وكانت فى تلك اللحظات تشعر وكأنها تقلد أباها ، وانها تحافظ على إرادتها ، كما لو كان ابوها يتحدث عن إرادة الدوتشى فى السيطرة على العالم فى امبراطورية رومانية فاشيستية مقدسة .. وكانت احيانا أخرى تتوسل لسانت تيريز كى تساعدها لتكون يقظة محتفظة بكامل وعيها ، لاتستسلم لمشاعر تتسلل اليها ، خاصة وهى تركب السيارة اثناء العودة وبعد ان يكونوا قد افرطوا فى الشراب ، وكانت تضع فى حسابها ان أيادى سوف تمتد لتعبث بجسدها ، ولكن سانت تيريز سوف تضع حدا لهذا العبث ، وستساعدها على ايقافه فى الوقت المناسب ، وسوف يكون اعترافها فى كرسى الاعتراف غير مفرط فى السوء .. وهى دائما تستطيع ان تختار قبل ان تصعد الى السيارة من سوف يجلس بجوارها ، وقد تتعمد أن تبدو كما لو كانت قد وقعت فى حبه فى تلك اللحظة ، حتى ينقذها من آخرين اكثر شراسة ، ورغبة فى العدوان .

وكانت تشعر بعد تلك التجارب ، بأهميتها ، وأنها محل اهتمام كثيرين ، وكان الزهو يملؤها بنشوة عارمة ، عندما تشارك فى حديثها المفضل عن عائلات القصور ، رغم أنها تعرف أنها سوف تعود الى شبرا ، لتواجه أمها ، تشكو من

آلام الروماتيزم تنخر عظام ظهرها وساقيها ، فتدرك على الفور أنها كانت فى مجتمع ليست منه ، وانها جاءت من عالم غريب عنها تماما ، يعيش فيه هؤلاء المصريون ، وأنها عادت الى بيتها فى شبرا ، حيث لاتستطيع أن تواصل بخيالها تصورات مريحة لحياتها فى ذلك المجتمع الذى تعرفت عليه .

وتذكر وجه ذلك الشاب الأسمر الطويل ذى العينين القويتين ، الذى اسمه كريم . وتقول لنفسها هو ايضا يعرف انها غريبة على مجتمعه . وكان يتفرج عليها كما يتفرج على الآخرين .

الفصل السابع

استدعى إلدوتشى شباب ايطاليا وقد تعرضت جيوشه إلى مقاومة شديدة من الجيش اليونانى عند الحدود الألبانية اليونانية وتحدث كوستا عن احتمال سفره إلى اليونان ليدافع عن بلده ، وذهب الى القنصلية اليونانية وعرض خدماته ، ولكنه كان يعرف أن أصابة قديمة بمرض السل سوف تحرمه من شرف الدفاع عن الوطن ، كما حرمته من شرف انجاب الأطفال ، وكان يتحدث مع نينا زوجته الايطالية ، أو مع السنيورة ماتيلدا والسنيورة ماريا ، كما لو كانتا يونانيتين ، وكما لو كان ماريو لم يلق حتفه فى الجيش ليحقق احلام الدوتشى .

وذهب الفريدو إلى بيت ساندرو ، يودع ماريا وأمها ، ولم يحاول أن يخفى قلقه . فسأل ماريا ماذا ستفعل عندما يغيب الشباب وسألته ماتيلدا التى كانت تسمعه .

ـ ألن تعودوا سريعا مع جيوش الدوتشى .

قال الفريد بلهجة غامضة :

ـ من يدرى :

فصاحت ماتيلدا :

ـ ستعودون منتصرين بكل تأكيد .. مصـر ليست أقوى من ألبانيا .. أو الحبشة .. وملك مصـر موافق مع الدوتشى على التخلص من اعدائه الايطاليين .. وهو يعتمد عليهم .

همس الفريد كالمخاطب نفسه :

ـ ملك مصـر ليست لديه القوة ليتحدى الانجليز .. الذين سيقبضون على كل الايطاليين إذا قامت الحرب .

وأردف وهو ينظر إلى ماريا قلقا :

ـ وعليكم أن تحتاطوا .

فسألت ماتيلدا فى غير فهم :

ـ ماذا تعنى ؟

قال الفريد :

ـ الانجليز شرسون .
صاحت ماتيلدا :
ـ سنذهب إلى الكنيسة ونلجأ اليها .. البابا سوف يحمينا .. لن يجرؤ أحد على المساس بنا ..
بعد هذا الحديث بيومين أو ثلاثة ، كانت ماريا تقف فى انتظار ترام شبرا فى محطة العتبة ، عندما فوجئت بصوت خلفها يقول فى مرح :
ـ كيف حالك ياخالتى ..
والتفتت فرأت كريم يطل عليها بعينين ساخرتين باسمتين ، وقبل أن تقرر أن تبتسم أو تغضب . كان يقول لها :
ـ أقسم لك أنك تشبهين خالتى وهى صغيرة ..
وابتسمت وقالت له :
ـ ولكنى ايطالية ..
قال باسما ساخرا ، وكأن قولها أنها إيطالية ، نكتة .
ـ ايطالية من شبرا ..
وسألها :
ـ أين ولدت ..
وأجاب عن سؤاله غير منتظر لاجابتها .
ـ هنا .. فى مصر ..
قالت :
ـ نعم .. فى شبرا ..
فعاد يسألها :
ـ وأمك .. أين ولدت ؟
قالت :
ـ فى الاسكندرية .. فى الازاريطة ..
قال بسخرية لاذعة :
ـ وتقولين أنك ايطالية .. أنت مصرية .. وتتكلمين العربية أحسن منى .. وتشبهين خالتى أمينة ..
ثم أردف :
ـ وأنت هنا واقفة فى انتظار الترام .. شكلك أجمل بكثير .. عندما رأيتك فى عزبة حمادة بالقناطر ..
قالت تبادله ـ سخرية بسخرية :
ـ يبدو أنك تحب الفقر ..

قال :

ـ لا أحب الفقر .. ولا أحب «العنطزة والفشخرة» .. أمى فلاحة تلبس الملس الأسود ولاتحب النفخة الكدابة ..

وفجأة قال لها :

مثل الدوتشى ..

قالت فى دهشة :

ـ ماله .. الدوتشى

قال لها :

ـ عنطزة ونفخة كدابة .. سوف تؤدى الى كارثة ..

وجاء ترام ١٥ ، فصاح :

ـ هذا هو ترامى ..

وقفز إليه ، وهو يلوح بيده باسما ، لم يسألها موعدا ، لم يغازلها ، قال لها كلاما عجيبا ، أنها مصرية ، وأنها تشبه خالته أمينة ، وقال لها أنه لايحب الدوتشى . يرفض كل ماعاش من أجله أبوها أميليو ساندرو ، يرفض مامات فى سبيله شقيقها ماريو .. وأمه فلاحة تلبس الملس الأسود .

وجاءت الأيام بما كان يخشاه الفريدو ، فها هى الحرب تقوم ، والانجليز يقبضون على الرجال الايطاليين الذين لم يسافروا إلى ايطاليا فى الوقت المناسب ، وأمتلأت المعتقلات برجال عجز الملك عن انقاذهم ، ولكنه استطاع أن يحتفظ بصديقه بترو فى حاشيته ، أما الشيفالييه برتولدى فقد سافر هو وعائلته ، وأغلق أبواب قصره . وعلمت بذلك السنيورة ماتيلدا عندما توجهت إلى قصر آل برتولدى ، وفى ظنها أنها تستطيع الاعتماد على نفوذهم واتصالاتهم بالسراى . فقابلها الحارس على الباب ، وقال لها أن الجميع قد رحلوا .

سألته قلقة :

ـ متى يعودون ؟

قال الرجل :

ـ قالوا أنهم سيعودون فى الصيف .

وتنهدت ماتيلدا ، وفسرت لنفسها عودة الصيف ، بأنها ستكون نهاية الحرب وقالت لنفسها وهى تراجع الشهور ، سيعودون فى يونيو ١٩٤٢ . إن آل برتولدى قادرون على معرفة الموقف ، وتقديرهم لم يخطىء ابدا . آه لوكان تونى قد تزوج ماريا .. كانت هى وابنتها الآن فى روما فى احضان الدوتشى وحمايته . ولكن البنت الحمقاء أضاعت كل شىء تماما مثل أبيها ، كان كل شىء بين يديه فأضاعه ، ثم ضاع هو .

وواجهت ماريا الرعب ، وهى تستمع إلى كوستا ، أن هناك تفكيرا فى الاستغناء عن العاملات الايطاليات . أنتابها فزع شديد ، كيف تعيش هى وأمها . لقد اختفى الشبان الايطاليون بقمصانهم السوداء ، وموتسكلاتهم ، واختفى الرجال الذين كانوا يعملون فى الفنادق والمطاعم والورش . قبض الانجليز عليهم وادخلوهم المعتقلات ، بينما انتشر الجنود الانجليز بوجوههم الحمراء ، وعجرفتهم وشراستهم ، ينشرون الفزع ، فيجتاحها شعور مرير بالوحدة . أصبحت تتلفت حولها مذعورة ، تبحث عن أى شىء تعتمد عليه ، لو جاء قرار فصلها من العمل ، فلا تجد سوى الخوف يتربص بها فى كل مكان .

ودعاها كوستا إلى مكتبه ظهر يوم ، وقال لها بلهجة جادة ، أن الأمر خطير ، وهناك قوائم بأسماء تعدها الادارة ، وتبلغها لجهات الأمن ، ودعاها الى الغداء ، فقبلت ، وفى طريقهما إلى مطعم « ريالتو » سألته عن « نينا » فقال لها أنها مشغولة . وأدركت على الفور ، أنه يريد أن يعقد علاقة معها . لم ترتبك . وسمحت لمشاعر متضاربة أن تتصارع داخلها ، وكأنها تتفرج عليها . كما تفرجت من قبل على أبيها يموت مرتجفا . وكما تفرجت على ملك هذا البلد الذى أصبح عاجزا عن أى شىء ، وكل شىء . وكما تفرجت على تونى ذلك التمثال الذى ظنت يوما أنه آدمى ، وكما تفرجت على أمها وهى تتشاجر مع أبيها لأنه تسبب فى قتل ماريو ، وكما تفرجت على الشبان المصريين . وتذكرت ذلك الشاب .. ما اسمه لقد نسيت اسمه . آخر مرة التقت به ، لم يذكر لها اسمه ، ولكن وجهه واضح تماما الآن فى مخيلتها ، وهو ينظر اليها بابتسامته الوقحة . هل كانت ابتسامة وقحة حقا . وهو يقول لها أنت مثل خالتى ، وأمى فلاحة تلبس الملس الأسود ولا تعرف شيئا عن هذا الذى ترينه امامك ، ولا تحب «النفخة الكدابة» . هاهى تتفرج الآن على كوستا ، تواجهه بثقة . انها تريد أن تحسم شيئا ، وسوف تترك الأمور تجرى كما تشاء ، وتتفرج ، وليحدث ما يحدث . ومن يدرى فقد ترفض كوستا وتعرض نفسها للطرد من العمل ، وقد تستسلم له ، أو تستولى عليه وتنتزعه من نينا . كل شىء ممكن ، كل شىء مباح ، فهى أيام حرب ، وسوف تعترف للأب لورنزو بخطيئتها المميتة . وتصوم شهرا ، ومن يدرى فقد تكون نهاية كل هذا أن تموت فى هذه الحياة وتدخل الدير .

ومن بين كل توقعاتها ، حدث الشىء الأكثر واقعية ، فقد اصطحبها كوستا بعد الغداء الذى اكلا فيه الشاتوبريان ، وشربا نبيذ كيانتى فاساتى ، إلى شقة فى شارع متفرع من شارع سليمان باشا . وصعد بها إلى الطابق السابع ، حيث دخلا السطوح ، ومرا فى طريقهما بساكن فرنسى ، كان يعطى درسا فى اللغة الفرنسية لشاب مصرى وهما جالسان تحت تكعيبة تغطيها أوراق اللبلاب وفى

زاوية من زوايا السطوح ، كانت حجرتان ، يفصلهما عن حديقة المدرس الفرنسى حاجز من الخشب المشغول مطلى باللون الأخضر واصطفت بحذائه أصص ورد وزهور ، وكانت سيقان اللبلاب تجرى فى فتحات الحاجز الخشبى وتلتف حوله ، فى اصرار وكان دخولها معه الى الحجرة التى فتحها ، يغنى عن أى حوار ، أو كلمات يتبادلانها ، لم تعد هناك حاجة إلى أن يقول لها ، وتقول له . وكان بالحجرة كنبة ستوديو وبار صغير ، ومنضدة طويلة ، وقبل ان ترى بقية الحجرة ، كان يعتصرها بين ذراعيه . فقد كان جوعان لجسدها منذ سنوات .

وتعودا اللقاء فى أيام محددة ، فى فترات محددة ، كان اللقاء عملا اضافيا إلى جانب عملها فى قسم العطور . وهربت من نينا . وقبلت كل السهرات والحفلات التى تخرج فيها مع شبان مصريين .

وجاء صباح يوم أحد ، فخرجت مع زميلاتها إلى عزبة حمادة فى القناطر .

جاءت عربة كاديلاك انحشرت فيها مع ثلاثة شبان ، أما حمادة صاحب العزبة ، فكان يقود السيارة وبجواره بنت لبنانية اسمها سيسيل . وكانت تسير خلف الكاديلاك عربة رحلات ، محملة بلفائف وسلال . وكان الشاب الذى على يمينها أسمر صعيديا ، قسماته حادة ولكن صوته رقيق . قالوا أن أباه مستشار كبير فى المحاكم مثل برتولدى . وانطلقت تغنى مع اغان يذيعها راديو السيارة فى برنامج مايطلبه المستمعون للاغانى العالمية .. باهيا .. وسيمفونى .. وجوزيف جوزيف .. وامادو ميو .. والجميع يتصايحون فى مرح ، وخاطر فى اعماقها يقارن بين هؤلاء الشبان وكوستا ، فى حجرة السطوح ، وهى خاضعة له ، فى كابوس تمزقه صيحات المدرس الفرنسى يلقى دروسه الخاصة على تلاميذه ، فينبئها صوته ، أنه مازال خارج الحجرة حياة من نوع آخر . وأنه قد يكون هناك خلاص من هذا الكابوس ، قبل أن تعلن يأسها وتبحث عن خلاصها الحقيقى ، فتحمل صليبها ، وتتبعه .

وأوشكت على البكاء وهى تغنى ، وكانت ترفع صوتها عاليا ، لعلها تنطلق مندفعة خارج حلقات الضيق التى تحاصرها : حتى أقبلت الكاديلاك على قناة ضيقة ، ينمو العشب الطويل على جانبيها ، وعبروا جسرا خشبيا فوق القناة ، اهتزت السيارة فوقه ، ثم عبروا مزلقان السكة الحديد ، واندفعوا فى طريق ترابى ، بين اشجار كافور تحيط بالحقول كأسوار لها ، وظهر البيت ، خيل لماريا أنها تراه لأول مرة ، وان كل شىء من حولها ، يأخذ لونا جديدا ، ويحدث فى نفسها تأثيرا لم تعرفه من قبل ، أنها اكثر حرصا على أن ترى بدقة ، وتتفحص بدقة ، كل ماتراه أو تسمعه حولها ، إن هذا الخنيس الذى يتوارى فى اعماقها ، ويذكرها بكوستا وتونى والملك يضطرها الى ان تقاومه ، وأن تهرب منه ،

بالاندفاع الى الخارج ، الى هذه الحياة التي قال لها ذلك الشاب ذات يوم . انها منها ، وأنها تشبه خالته الفلاحة .

عبرت السيارة جسرا خشبيا آخر ، ومرقت من بوابة فى سور حديقة البيت ، وكانت سيارة أخرى تقف وقد وصل اصحابها قبلهم . وأقبلت ثلاثة كلاب تنبح وتدور حولهم وتهز ذيلها ، معلنة ترحيبها بحمادة صاحب العزبة ، وظهرت زوجته ليلى ترحب بهم .

كان البيت على صغر مساحته ، أنيقا ، له شرفة واسعة ، تحيط بثلاث جهات من الطابق الأول ، ولما تقدمت ماريا نحو البيت ظهرت لها مجموعة من الضيوف قد سبقوا الى حوض السباحة ، فأسرعت الى الداخل مع البنات اللاتى وصلن أخيرا ، وصعدت الى الطابق الاعلى حيث حجرة نوم لها نافذة مفتوحة تطل على الحديقة ، وخلعت ملابسها أمام سيسيل اللبنانية التى جاء بها صاحب العزبة ، وتبادلت النظرات الضاحكة مع سيسيل ، التى امتدحت جمالها ، وابدت اعجابها بنهديها ، وقالت لها أنها حزينة لأن ساقيها نحيفتان ، ثم قالت لها سيسيل ، حذار من السمنة يا ماريا ، جسمك رغم جماله به استعداد للسمنة ، بطنك توشك أن تكبر ، ثم قالت لها وهى تغمز بعينيها :

ـ هل تضمنين تصرفات هؤلاء المصريين .

وتعودت أن تسمع ما تسمعه ، وفى اذنيها كلمات أمها .. انها ستتعرض بسبب جمالها لغيرة تأكل البنات ، وسيحاولن البحث عن كلمات يقولونها تضايقها أو تخيفها ـ هذه هى وسيلتهن الوحيدة ليهدئن من نار الغيرة . فلا مفر من نهشك وتجريحك أو زعزعة ثقتك بنفسك وجمالك . ولكن كل الكلمات التى تقولها البنات ، لن تحرجها الآن ، لن تنهشها اكثر مما تنهشها تلك العلاقة اليائسة مع كوستا ، انها افسدت مشاعرها نحو صديقتها نينا ، تلك الزوجة الطيبة التى لا تشك ولا تستريب فيها ، وان كانت تشكو احيانا من احوال كوستا وتفسرها بحرمانه من الانضمام الى الجيش اليونانى ، بينما تفسرها أمها ماتيلدا ، بحرمانه من انجاب الاطفال .

واجهت ماريا ، كلمات سيسيل بوجه غبى ، الوجه الذى تخفى به ذنوبها عن الناس ، الوجه الذى سيلازمها مادام لا مهرب من كوستا الذى فاجأها فى آخر لقاء لهما ، وهو ينظر اليها نظرة غريبة وهى مستسلمة له . يعبث بها . قائلا بصوت مجنون :

ـ هكذا استوليت عليك ـ انتقاما مما فعله الدوتشى ببلادى .

وضمها ، وعانقها وفى عينيه لمعة جنون ، وفى أذنيها كلماته غير المفهومة ، مختلطة بكلمات فرنسية لمدرس اللغة الفرنسية ، تأتى من بعيد .

وسألته فى غباء ، لجأت اليه ، لتمتنع عن التفكير ، وهى تنظر فى فراغ الحجرة :

ـ هل تظن أنى جارية لك .

قال بتلك اللهفة المجنونة التى استولت عليه .

ـ نعم .. أنت اسيرتى فى هذه الحرب .

انها الآن ، اسيرة كوستا ، وترتدى مايوها أحمر من قطعتين فى طريقها الى حوض السباحة . ماريا التى كان ابوها منذ عامين يتوقع أن تقتحم سراى الملك ، أو قصر آل برتولدى .

كان الجراموفون فى الشرفة يطلق انغاما راقصة ، والرقص على أشده ، ولمحت ماريا بعض الفلاحين يتسترون خلف الشجيرات يراقبون الراقصين والراقصات فى فضول وحذر ، وكان حمادة بجوارالجراموفون يراجع بعض الاسطوانات ، فلما رآها ترك مافى يده وأسرع اليها فقالت له ضاحكة أنها ذاهبة الى حوض الاستحمام فقال لها أنهما سيرقصان معا أولا ، فقد صرحت له زوجته برقصة مع كل بنت ، ولكن رقصة واحدة فقط ، وتحرك معها كراقص محترف ، وكان قصيرا ، أقصر منها ، يقفز ويدور ويضرب بقدميه الأرض ويشب على اطراف أصابعه ، فيبدو أنه يطول ، أو يملأ فى الفراغ مساحة اكبر مما يشغله جسمه الضئيل . وكانت ليلى تراقبهما بغير اكتراث ، وما أن انتهت الرقصة حتى هجم عليها اكثر من واحد يريد أن يرقص معها . وعرفت أنها جميلة ، وصاحت ضاحكة ، انها لن ترقص قبل ان تقذف بنفسها فى الماء ، قالتها وهى تجرى ، وتشعر بنشوة جديدة ، وهى مندفعة فى مساحة خضراء كبيرة ، مساحة رحبة من الأرض ، وكان صوت طاحونة يدق دقا رتيبا متقطعا ، معلنا فى اصرار عن وجوده الذى يتحدى ايقاع الأغانى الراقصة ، وتحركات الراقصين والراقصات .

وألقت بنفسها فى الماء غير ملتفته الى أحد حولها ، وغاصت فى الماء ، وصعدت برأسها ، وقد حمت شعرها بقلنسوة حمراء من المطاط . ومن بين قطرات الماء التى تنساب حول عينيها وتتساقط من رأسها رآته .

كان ينظر فى اتجاهها . نعم إنه هو . وقبل ان تفكر صاحت مهللة :

ـ هاللوه .

وضربت بيديها فى الماء ، وضربت بذراعيها فى الماء ، متجهة له ، وصدرها يشق الماء ، وكان واقفا عند حافة حوض السباحة يطل عليها . وهى متجهة اليه . نعم إنه هو .

وللحظة خاطفة شعرت بفزع . قد لايذكرها . ولم تصبر فسألته بسرعة :

ـ الا تذكرنى ؟

قال باسما :
ـ نعم أذكرك .
واتسعت ابتسامته قائلا :
ـ أنت الفترينة ..
ثم برقت عيناه بسرور كبير ، يحمل اكثر من تذكر وقال :
ـ أنت بنت شبرا التى تشبه خالتى ..
صاحت ضاحكة من قلبها :
ـ خالتك أمينة .
قال ضاحكا :
ـ نعم ياماريا ساندرو .
قالت بلاوعى ، الكلمات تتذكرها وتتدفق من فمها ، من صدرها .
ـ أمك فلاحة .. تلبس الملس الأسود .
قال باسما :
ـ تمام .
وأردف :
ـ وحشتينى .
ومد يده ، مصدرا أمره بحنان .
ـ تعال .
مدت يدها . وتركته يجذبها لتصعد من الحوض .
ونظر اليها وقال :
ـ الا تشعرين ببرد .
قالت :
ـ لا .

قال وهو ينظر فى وجهها ، وخيل اليها أنه يتحاشى النظر إلى جسمها بل تأكدت أن هذا شعوره وهو يقول :
ـ الأفضل أن ترتدى شيئا .
سألته بغبائها المريح . غباؤها الذى لجأت اليه ، لتمتنع عن التفكير فيما يجلب عليها التعاسة :
ـ لماذا ؟
قال بسرعة :
ـ حتى لاتصابين ببرد .
لم يقل أنها عارية ، وأنه لايريد أن يراها الناس هكذا لو قالها لما اعترضت .

قالت بدهشة تصطنعه :
ـ اصاب بالبرد .. ونحن فى الربيع .
قال :
ـ هذا أوان البرد .. مع تقلب الفصول .
فواجهته .. تريد أن تخطو خطوة خارج منطقة الغباء ، وقالت له :
ـ هذه أول مرة أتبين فيها أنك خجول .
قال فى خجل يغطيه بدهشة :
ـ أنا .
قالت :
ـ لقد ظلمتك .. عندما اتهمتك بأنك كنت تنظر الى كأنى فترينة .
قال ضاحكا :
ـ النظرة الاولى من حقى أن أدقق فيها ..
قالت :
ـ لماذا ؟
قال :
ـ هذه مسألة شرعية فى الاسلام .. للرجل النظرة الأولى خشية ان يكون القادم أسدا .
صاحت ضاحكة:
ـ وهل يحتمل ان ترى اسدا هنا ..
قال ضاحكا :
ـ قد تكون أمرأة جميلة أخطر من الأسد .. خاصة إذا كانت عارية .
قالت بصوت جاد ، لاتدرى كيف فرضت كلماته عليها .
ـ سأجرى وأرتدى ملابسى ..
وسأعود إليك ..
وصاحت وهى تبتعد .. اياك أن تختفى .
قال :
ـ سأنتظرك .
عندما عادت له . كانت قد عزمت على أن تحاول معرفته اكثر . فهذا هو الشاب الذى كانت تتذكره بلا مناسبة ، وربما بلا مبرر ، لعلها تستريح لو أثبتت لنفسها بسرعة ، أنه مثل الآخرين .
سألته وهى تعود له بفستانها المزركش ، وجسدها ينتفض حيوية بعد أن أنعشه الماء .

ـ هيا نرقص .
قال :
ـ وأنت تعرفين .. لم أتعلم الرقص بعد .
صاحت :
ـ مازلت فلاحا ..
قال باسما :
ـ جدا .
قالت :
ـ ومتى تترك الفلاحين وعاداتهم . ؟
قال :
ـ لا أظن أن أمى .. سوف تترك الفرن والرغيف البتاو .
ووجه اليها نظراته قائلا :
ـ هل تعرفين الرغيف البتاو ؟
قالت :
ـ لا .
قال :
ـ أنت من البندر .. ولا بد من تثقيفك .. سوف يأتى يوم تذهبين فيه معى إلى زيارة أمى .
صاحت :
ـ أنا .
قال :
ـ نعم .
فهتفت فى مرح :
ـ ولكن ماذا نفعل الآن ؟
قال يبادلها نفس المرح ، وعيناه تلمعان ببهجة :
ـ بعدهذا التعارف ، لم يبق الآ أن نتزوج .
وعلى الرغم أنها سمعت ماقاله . وكانت واثقة أنه يمزح .. وكان وجهه يمزح ، ولهجته مازحة . الا أن شيئا ما هز ضلوعها هزا عنيفا ، حتى شعرت بالوجع فى صدرها ، وسألته كأنها لم تسمعه :
ـ ماذا تقول ؟
قال فى هدوء . والابتسامة لاتفارق شفتيه أو عينيه .
ـ نتزوج .. على سنة الله ورسوله .

الفصل الثامن

نظرت اليه تتأمله ، وشعور غامض ، جاد ينتابها ، وفجأة صاحت ضاحكة فى انفعال :

ـ يــــاريــــــت .

فصاح يبادلها نفس الضحكة :

ـ هيا إذن .. ماذا ننتظر ؟ .

كان يمزح ، وكانت تعلم أنه يمزح ، وكانت تشاركه المزاح ، لولا أن شيئا ما فى أعماقها يغيظها من نفسها ، ويكاد يتهمها بأنها تتحدى حياتها ، وكل ما عرفته وتعودته ، إذ تترك مثل هذا المزاح يستمر .. وتسمح لنفسها بأن تعبث على هذا النحو مع فلاح مثله .

وكان لابد من مخرج ، لابد من أن تسكت صوت الاتهام قبل أن يقوى ، فابتسمت لأحد الشبان ، كان يمر بها ، وقالت له :

ـ كريم لايريد أن يرقص معى .

قال لها الشاب :

ـ أنا أرقص معك .

وتركت كريم ، أو هربت من مزاحه ، ورقصت مع الشاب ، ولكنها وجدت نفسها تفكر فى كريم فسألت الشاب الذى يراقصها عنه هل تعرفه ؟ من هو ؟ ماذا يعمل ؟ وسمعت إجابات مقتضبة . محام .. يعمل فى مكتب محام كبير بالاسكندرية ، ذكى .

قالت فجأة للشاب بصوت مرتفع :

ـ إنه مجنون .. يقول لى : أنا لاأرقص معك .. ولكنى أريد أن أتزوجك .

قال لها الشاب ضاحكا :

ـ هذه طريقة مبتكرة فى الغزل .

قالت ماريا ساخرة وهى تشعر أنها توجه سخريتها لنفسها :

ـ طريقة مكشوفة .. إنها طريقة فلاحين كما يقول .

قال الشاب :

ـ أما هذا فهو صحيح .. كريم استاذ فى لؤم الفلاحين .

وعادت الى كريم ، واستقبلها محتفظا بابتسامته فى عينيه ،
وقال بصوت أقرب الى الهمس :
ـ لماذا هربت ؟ .
قالت بدهشة تصطنعها :
ـ أنا أهرب ؟!
قال :
ـ كنت أظن أننا اتفقنا على الزواج .
قالت ساخرة :
ـ آه .. طبعا فأنت تظن أنى عبيطة .
اذا كان يلعب ، فلتبادله لعبا بلعب . لابأس بهذه المباراة فى السخرية والمزاح ، واندفعت بجرأة لاتستطيع أن تتخلى عنها ، بل كانت منتشية بها ، وهى تخترق كل الحواجز ، وكل أسباب الغربة والعزلة التى عانت منها فى هذا المجتمع المصرى ، تصرفت كبوهيمية ، شعنونة ، جريئة . لاتعبأ بشىء . ووجدت نفسها تجذبه من يده ، وتجرى نحو الآخرين ، وهو يجرى معها . وكانت تزعق بأعلى صوتها :
ـ اسمعوا .. اسمعوا .. كريم يريد أن يتزوجنى ..
وتعالت صيحات تناديها ، أو تنادى كريم ، ولكنها رفضت أن تقف . وابتعدت به ، وهو يتبعها راضيا ، وتوقفت وقد تبينت أمامها الفضاء ممتدا حتى أفق لا حدود له . ونظرت فى عينيه وسألته :
ـ ألست مثل الآخرين ؟.
قال بسرعة :
ـ مثلهم .. ولست مثلهم ! .
سألته :
ـ ماذا تعنى ؟
أجاب بهدوء :
ـ ماريا .. أنت شديدة الانفعال .
هل كان صوته هادئا أم حنونا .. هل كانت عيناه تلومان ، تسخران ، أم حانيتين
قالت بالرغم منها ، كمن لايستطيع ان يقاوم إغفاءة تغالبه وتجذبه الى عالم النوم :
ـ أنا مرهقة .
قال :

ـ تكلمى .. وسوف أنصت اليك .
نظرت إليه فى دهشة .. ثم ضحكت .
سألها فى عتاب :
ـ هل قلت شيئا أضحكك .
قالت بسرعة :
ـ انت تتكلم مثل الأب لورنزو ..
قال بسذاجة :
ـ لا أعرفه ..
قالت ضاحكة :
ـ طبعا .. لاتعرفه .. إنه الأب الذى اعترف له فى سانت تيريز .
قال باسما :
ـ شبرا .. ليست شبرا بغير سانت تيريز ..
سألته :
ـ أتعرفها ؟
قال بهدوء :
ـ أمى تقول إن خالى بسيونى الذى هو شقيقها .. يتعامل مع سانت تيريز فى شبرا .. كما يتعامل خالى سعد مع السيدة زينب فى السيدة .
فسألته بفضول :
ـ ولكنكم مسلمون .. ولستم مسيحيين ؟
قال لها ولهجة الأب لونزو تعود الى صوته :
ـ المسيحية هى دين الله قبل الاسلام .. ولقد عرفناها فى مصر قبل أن نعرف الاسلام ..
وسألها وفى صوته حرارة العاطفة :
ـ هل تعرفين ماهو الاسلام ؟
قالت بسرعة :
ـ تتزوجون أربعا .. وتطلقون المرأة .. بكلمة كما لو كانت خادمة .
قال باسما :
ـ الاسلام بناء كبير .. يحتوى داخله على كل أديان السماء .. فيه التوارة والأنجيل وفيه الأحبار والقسس والرهبان ، والمسلم يشهد على ذلك كله .. ويتعامل معه بالعدل والرحمة ..
قالت وهئ تشعر برغبة فى أن تتحداه :
ـ أتريد أيها المسلم أن اعترف لك ؟
قال :

ـ لا .. ولكن تستطيعين أن تتحدثى معى وأنت مطمئنة ..
أمسكت بذراعه .. وسألته وهى تحدق فى عينيه :
ـ ألن تطلب إلىّ بعد كل هذا الكلام .. أن أذهب معك الى البيت ؟..
قال باسما :
ـ كزوجتى .. نعم .
قالت بانفعال وغضب :
ـ كفى هزرا .. إنى أقول لك إنى مرهقة ..
همس جادا :
ـ تأكدى أنى لن أدعوك الى بيتى .. كما تظنين .
سألته مترددة مستريبة :
ـ صحيح ؟ .
قال محتجا ، وبلهجة آمرة :
ـ يجب أن تكفى عن هذا .. يكفى أنى قلت لك إنى على استعداد لأن أسمعك
يجب أن تطمئنى ياماريا ..
صاحت فيه غاضبة ، وهى تشعر بحقد مفاجىء نحوه :
ـ من أنت حتى تحدثنى بهذه اللهجة . ؟
نظر اليها بثبات ، وقال محتفظا بهدوئه الذى أزعجها :
ـ هل أنت متعبة الى هذا الحد ؟
صاحت فيه :
ـ لا شأن لك بى .
قال :
ـ إنى صديقك .
قالت بترفع ، وهى تستدعى غباءها الذى تخلت عنه ، فلم تتحمل ماتشعر به :
ـ لا .. أنت غريب عنى تماما .. لست صديقى .. وكلامك غريب .. وتتحدث بغرور .. أنا آسفه .. ابتسامتك تضايقنى .

وأستدارت ، وتركته مسرعة إلى الآخرين .

واختفى كريم من حياتها . ولم تتذكره . ربما تذكرته بصورة عابرة . لمناسبة لاتذكرها ، ولا أهمية لها . وانشغلت بعلاقتها مع كوستا . الذى ترقى وأصبح مديرا للمشتريات لجميع أفرع محلات « ب » فى مصر وكثرت أسفاره إلى الاسكندرية ، وطنطا والمنصورة وأسيوط ، وتحررت من لقاءاته ، ولكن كثرت لقاءاتها بنينا فزاد شعورها بالذنب ، وكانت تذهب معها إلى السينما ، وتقابلها عندما تجتمع السيدات وبينهن أمها ماتيلدا ليلعبن الكونكان فى احد البيوت ،

وكثرت سهرات لعب الورق ، مع إغلاق النادى الايطالى واستيلاء قوات الجيش البريطانى على مبانيه وملاعبه ، وأصبح الخروج ليلا محفوفا بالمخاطر ، مع الظلام التام ، وتوالى غارات طائرات المسرشميدت التى يرسلها رومل فى زحفه على مصر .

وجاءت قريبة للسنيورة الزا مهاجرة من الاسكندرية ، بعد اشتداد الغارات عليها . وكان جو من التفاؤل يصاحب القلق فى النفوس ، فالفرج قريب ، وماهى الا شهور أو أسابيع وتصل قوات الدوتشى مع قوات روميل . وكانت السنيورة ماتيلدا تردد أن آل برتولدى قالوا إنهم قادمون فى يونيو ، أى بعد شهر ، وهذا يتفق تماما مع ماتأتى به أخبار الحرب ووصول قوات ايطاليا والمانيا الى السلوم .

وجاءت نينا عصر يوم الى ماريا فى قسم العطور . وكانت فى حالة عصبية ، وطلبت إليها أن تخرج معها . فلما قالت لها ماريا أن الخروج قبل مواعيد انتهاء العمل مستحيل ، اغرورقت عيناها بالدموع ، وقالت إنها ستعود لها فى موعد خروجها . وسألتها ماريا وقد رأتها تبتعد : الى أين هى ذاهبة ؟ ، فقالت لها بصوت متهدج ، إنها ستمشى فى الشوارع . قالتها كما لوكانت ستلقى بنفسها الى التهلكة . وهجمت المخاوف على ماريا ، كانت واثقة من أن كوستا هو السبب فى اضطرابها ، ورغم أن نينا تلجأ اليها ، الا ان الشكوك تدافعت فزعة ملتاعة فى صدرها ، إن نينا عرفت مابينها وبين كوستا .

ووجدت ماريا نينا تنتظرها عند باب الخروج ، وعجبت عندما قالت لها إنها لاتدرى ماذا فعلت خلال ساعة ونصف ، فقد مشت ذاهلة .

وقالت نينا إن كوستا على علاقة بفتاة يهودية فى الاسكندرية . اسمها إليا سيلفيرا . أبوها يهودى تركى يعمل فى بورصة القطن ، وأمها يهودية مصرية ، وأن هذه المعلومات وصلتها من قريبة لها أرسلت لها خطابا تحذرها من تصرفات كوستا .

قالت نينا وهى جالسة مع ماريا فى حديقة جروبى بشارع المناخ :

ـ ماذا أفعل ؟ ..

وتمنت ماريا لو أنشقت الأرض وابتلعتها ، فهى من دون جميع البشر واحدة من عشيقات كوستا ، واحدة من جارياته ، أسيراته ، حريمه ، وهى أيضا تريد أن تبكى حظها التعس ، وتريد أن تخلو لنفسها ، لتفكر فى نتائج هذه العلاقة الجديدة التى دخل فيها كوستا . هل معنى هذا أنه سيهجرها ؟ ، ولو هجرها ، هل يتخلى عنها ويسمح بطردها من العمل ؟ أم سيصر على بقائها واحدة من عشيقاته ؟ . وتذكرت وجه كريم . وهى تقول له : « تتزوجون أربعا ، وتطلقون المرأة بكلمة كما لوكانت خادمة » .

وكانت نينا تتكلم ، وماريا تكتشف أنها لاتستطيع أن تنطق باسم كوستا أمامها . وعقلها يتحرك بدوامة من التفاصيل المختلطة .. تتذكر مشاهد ، وكلمات ، والدموع تريد أن تصل الى مآقيها ، وهى تقاوم أن تفضحها دموعها . وتكشف أمام نينا سرها وخطيئتها المميتة التى اعترفت بها للأب لورنزو .. وأوشكت أن تبوح بها فى لحظة حماقة لذلك الشاب المصرى الذى اسمه كريم .

كانت تقول له إنها مرهقة . نعم إنها مرهقة ، ولا أمل فى أن تصل الى راحة ، عليها الآن أن تراقب نفسها ، فلا تسمح لنينا بأن ترى ما فى أعماقها من دنس وخطيئة .

وسمعت نينا تقول :

ـ مارأيك .. أسافر له الى الاسكندرية .. واضبطه معها ؟

قالت لها :

ـ الاسكندرية فى حالة غارات مستمرة ..

صاحت نينا بحرقة :

ـ ليت قنبلة تسقط عليهما فتقضى عليهما ..

وقالت من بين أسنانها :

ـ هتلر على حق وهو يحرق كل اليهود .. ويبيدهم من الدنيا .

ارتجفت ماريا .. آه لو علمت : أتتمنى أن يحرقها هتلر لا مع اليهوديات ، ولكن مع الخائنات الزانيات أمثالها . هل آن الأوان لأن تلحق بالدير . وتترك هذه الدنيا بدنسها وخطاياها .

وفجأة سمعت نينا تسألها :

ـ مالك .. أنت مرهقة .

شعرت ببرودة تلسعها مع رجفة خاطفة تسرى فى جلدها ، وهمست فى خوف :

ـ لا .. لست متعبة الى هذا الحد .. ولكنها الدورة الشهرية ..

وسكتت لاهثة . وهى تقول لنفسها . إنها صادقة على الأقل فى هذه المعلومة التى تبرر بها ماتراه نينا من علامات إرهاق أو علامات خوف وفزع .

وخرجتا إلى الشارع وركبتا الترام فى طريق عودتهما ، لم تنتهيا الى شىء ولزمتا الصمت ، ومصريون ، وجنود انجليز يصعدون ويهبطون من الترام ، وجاء مفتش الترام ، السنيور رينالدو ، وحياهما ، وسأل ماريا عن أمها ، وكانت مقصورة الحريم خالية الا من ثلاثتهم فهمس رينالدو : إنهم تركوه فى العمل لأنه قارب على الستين ، وأن الأخبار التى سمعها تبشر بأن كل شىء سينتهى بسرعة .

ولما انصرف رينالدو بجسمه البدين وطربوشه الأحمر فوق وجهه السمين

المحتقن قالت نينا بمرارة :
ـ عندما يأتون .. سوف انتقم من هذا اليونانى .. وأجعله يندم كما لم يندم فى حياته .
قالت ماريا بلهجة يشوبها التوسل :
ـ سوف يعود لك .. ويندم ..
فسألتها فجأة وكأنها لم تذكر الانتقام من لحظات :
ـ هل يعود حقا ياماريا ؟
قالت ماريا :
ـ لن يجد من تحميه وترعاه مثلك .
فتشبثت نينا بيدها ، وضغطت عليها بقوة وهى تقول :
ـ لاتتركينى ياماريا فى هذه الأيام .. يجب ان نكون معا .. يجب أن ندافع عن وجودنا .. أنا لا أتوقع الخير من هذه الدنيا .. الخطيئة هى مكاسبها . لم يبق لنا بيت نأوى إليه سوى الكنيسة .. سوى أنت ياسانت تيريز .
بعد يومين رأت كوستا يمر بها وهى واقفة فى قسم العطور واقترب كعادته وهمس :
ـ ألقاك اليوم .
همست :
ـ لا ..
فنظر اليها غير مصدق مايسمعه :
ـ لماذا ؟
قالت بقوة لاتدرى كيف استجمعتها :
ـ لأنى قررت قطع ما بينى وبينك .. لقد اعترفت .. وبدأت صياما ثلاثين يوما .
همس :
ـ كيف تجرئين ؟
همست :
ـ تكفيك اليهودية التى عرفتها فى الاسكندرية ..
حدق فى وجهها متفحصا وسأل :
ـ من قال لك ؟
همست :
ـ نينا ..
فاصفر وجهه وسألها :
ـ ماذا قالت ؟ ..

وتشجعت ماريا قائلة بصوت رفعته فوق درجة الهمس :
- كلها أيام ويعودون .. ولن تجرؤ على فصلى .. أو إيذائى ..
فنظر إليها فى رعب .. وهز رأسه صامتا .. وابتعد .. واشتدت الغارات ، وانهالت القنابل أمطارا غزيرة على الاسكندرية ، وشوهدت عربات الانجليز تسرع فى شوارع القاهرة ، تحمل معداتها وعتادها ، وقالوا إن الانجليز يحرقون أوراقهم ، ويستعدون للانسحاب من مصر . فقد وصلت قوات رومل ومعها قوات ايطاليا إلى العلمين . وصاحت السنيورة ماتيلدا فى صاحباتها :
- كلها أيام ويعودون .. إن آل برتولدى يحافظون على مواعيدهم بدقة متناهية .
وذات يوم ، دعاها حمادة مع شلته الى الأوبرج ، كانت الحرب لاتعنى بالنسبة لهم شيئا ، وكانوا يتحدثون بسرور وتشف عن هرب الانجليز مذعورين .
وفجأة سمعت أحدهم يقول بلهجة عادية ، تغلب الدهشة فيها على الحزن :
- على فكرة ياجماعة .. أنا سمعت خبرا مؤلما .. كريم مات فى الغارة التى استمرت يومى ٧ ، ٨ يونيو .. على الاسكندرية .. العمارة التى يسكنها انهارت وتحولت الى أنقاض .
وأنطلق الراوى يصف الهلع الذى كان فيه الناس ، وكيف اضطر الذى جاءه بالخبر ، إلى أن يهرب من الاسكندرية فى قطار بضائع وقد شاهد بنفسه أنقاض عمارة كريم ، وسأل أحد الواقفين الذاهلين ، أمام الأنقاض . فقال له بصوت ذاهل .. لاتسأل عن أحد .. كلهم ماتوا .. لم يبق الا الأنقاض .
وقال حمادة :
- كريم كان يسكن فى السطوح ..
استمعت إليهم فى غير فهم . كأنها لاتعرف من هو كريم ، لم تقل شيئا وانكمشت مكانها ، حتى انتهوا من حكايتهم عن ذلك الشخص الذى يقولون إنه مات . وعادت الى الرقص ، وعادوا الى الضحك ، ولم يذكروا شيئا عن كريم بعد ذلك ، حتى سأل أحدهم فجأة إذا كان أحد يعرف أهل كريم ، لم يقل أحد إنه يعرفهم ، أما هى فتذكرت أنه حدثها عن أمه وخاله الذى فى شبرا وخالته أمينة التى تشبهها ، تذكرت دون أن تدرك أنه مات .
وانفجر أحدهم فى محاولة للخروج من جو الحزن هاتفا :
- لو كنا نعرفهم .. كنا ذهبنا لأمه .. وقلنا لها : البقية فى حياتك ياخالتى ستوته .
ولم يضحك أحد ، وشعرت بانقباض فى قلبها ، لازمها حتى أغلقت على نفسها حجرة نومها فإذا بها تنفجر فى بكاء صامت ، وهى لاتدرى لماذا تبكى .
وزارها فى المنام كريم ، جاءها بوجهه الأسمر وعينيه القويتين ، وشعره

الأكرت ، ورأته يقف معها يطلان من الشرفة على المزارع وبرج سانت تيريز ، وأعمدة النور ، وأسراب طير أبيض تطير ، وأمها راقدة على السرير ، نائمة ، وهى طفلة تصعد الى السرير تسعى الى حضن أمها ، بطن أمها ، تصعد الى كهف ، الى دهليز ، تتوقع أولادا يختبئون فيه ، وبنات لاتراهم ولكنها على يقين من وجودهم ، وقالت لنفسها : لو قابلتهم فسوف أجده معهم فهو مع الأولاد مختبئين من الحرب ، ومن الموت ، أنفاسهم تلفحها ، فتسرى فى جسدها رجفة وهى مزيج من النشوة والفزع ، وتوقع لقاء به وخوف من اللقاء به ، مطمئنة ولكنها قلقة وتريد أن تختبىء ، وتخشى ـ اذا اختبأت ـ أن تتغير ، فإذا لم تتغير تموت . وهى تتربص به ، وسوف تحتضنه ، وسوف يأتى ويصعد اليها وهى راقدة فى السرير ليفتح فى بطنها بابا يخرج منه الصبيان والبنات ، وتحولت أمها الراقدة على السرير الى رجل غير محدود المعالم . تحول حضن الأم بحنانه ودفئه الى صدر رجل قوى ، كله ذكورة ورجولة ، تحتويانها ، وتعتصرانها ، وترهقهانها . تشعر بأن هذا نعمة من عند الله ، ملائكة من السماء يزفونها ، وقبل أن تفيق من نشوتها تسقط فى دنس ، ويضطرب شعورها بين طهارة وعهر ، براءة وفحش لذة وألم وفى النهاية تسقط كل أقنعة الاحترام . تسقط مظاهر الحب ، يسقط الحياء ، ولا يبقى الا الجسد يطالب بالجسد ، بلا احترام ، بلا هيبة بلا تردد . ويقذف بها خيالها إلى نشوة عميقة ، فى بحر مياهه ملساء ، وأحيانا يقذف بها بين براثن ندم وشعور بالألم وإحساس بالذنب .

واستيقظت فزعة ، وشهقت وهى تذكر أن هذا الذى جاءها فى الحلم . هو كريم . وأنه مات ..

الفصل التاسع

رأت شخصا يشبهه ، لا ، إن عينيه ليستا فى قوة عينى كريم ، كانت قد انتهت من بيع زجاجة عطر انجليزية ، آخر مافى المخزن ، لم يعد يصل مصر الا القنابل التى تمطرها الطائرات وارتعشت يدها وهى تتذكر وجهه . وخطر ببالها سؤال وقح : هل كانت تتزوج كريم ؟

أجابت بسرعة : ولا فى المنام . كيف تسلم نفسها لمخلوق مثله ، كافر ، ديانته جاءت من صحراء يسكنها بدو غير متحضرين . دين الحريم والجوارى والشهوات ؟

كان أبوها يقول عن المسلمين : إنهم اتباع رجل اسمه محمد عاش فى الصحراء وسط بدو قساة ، أجلاف ، وكان له زوجات كثيرات . ماشأنها وهؤلاء المسلمين ؟ وما الذى يورطها معهم ؟

ومع ذلك فإنها مازالت تتذكر كلماته العابرة الهازلة . هل كانت هازلة حقا ، لماذا تعاودها كأنها تحوم حولها فى حلقات أشبه بالدوامة تدور بالرعب والرغبة ، والخوف والحب ، وتدفعها إلى التفكير فى هؤلاء المصريين .. تعيش بينهم وهى ليست منهم .

هل تريد أن تتخلص من الغربة ، وتنجو من العزلة ؟

هل يكون خلاصها فى السقوط فى هوة بلا قرار من الوحشية والغلظة والجهل والقسوة . تسقط فى جب ، فى سجن الحريم ، فى العبودية .

الحلم يطوف بها ، والخيال يلاحقها ، وهى تقترب اكثر واكثر من هذا الذى تبتعد عنه .

تقترب من طريق تبحث فيه عن كنيسة فلا تجد كنيسة . طريق ليس فيه الا بشر من نوع كريم ـ أو من هو أسوأ منه . يردد كلماته الغريبة ـ غير المفهومة ـ عن الزواج بسنة الله ورسوله ، كلمات غليظة تصطدم بأذنيها ، وتنفر منها كما لو كانت تنذر بنهاية سيئة ، جدار يأس أو احباط . وهو هناك يقف فى عالم الموت الذى اختفى فيه ، كما لو كان يتفرج على مملكة الضياع التى تعيش فيها .

هل يخيفها كريم ؟ لقد شبع موتا ، ومع ذلك تشعر وكأنها سائرة فى طريق

يفضى إليه ، إنه لم يعد رجلا ، كل رجولته خشونته ، غلظته جلافته ، قد ذابت فى التراب .

هل هو الشيطان يظهر لها أحيانا وكأنه كريم تتصوره احيانا ملاكا حنونا ، ثم تعود إلى رشدها فتتذكره حيوانا كله شر وخطيئة ؟

كانت نينا تلح عليها أن يسافرا الى الاسكندرية فى اجازة لمدة اسبوع ، لقد انحسرت الحرب عن الاسكندرية ، وانهارت جيوش رومل ووقع مئات الالوف من الايطاليين أسرى فى العلمين . كل القصور تنهار ، كل الاحلام تتبدد ، الذكريات والأمجاد تتساقط فى مهانة مضاعفة . مهانة الاساءة إليها ، ومهانة العجز عن بلوغها .

وسافر كوستا الوغد إلى استراليا بعد أن أعلن انفصاله الجسدى عن نينا . التى كانت تنتظر انتصار الدوتشى لتنتقم من كوستا . احترق زواجها مع هزيمة جرازيانى وبادوليو ، ولم تبق لها الا المرارة ، أما ماريا فلم تحزن على ضياع أحلام برتولدى ، ولعلها ادركت دون أن تعى تماما ماتدركه ، أن كل هذه الاحلام كانت عبثا منذ مصرع شقيقها ماريو فى الحبشة ، ومنذ ارتجفت يد أبيها ، وظلت ترتجف حتى قبل ان يموت بساعات وهو يحاول أن يتشبث بوسام ماريو الذى حصل عليه من الدوتشى .

أو لعلها تحصنت ضد مرارة الهزيمة ، منذ أن قال لها كريم إنها ليست ايطالية ، وتعامل معها كمصرية ، إنها لن تنسى ابدا صوته ، يأتى من خلفها وقبل أن تراه ، وهى واقفة فى محطة الترام بالعتبة يقول لها : كيف حالك ياخالتى ؟

ليلة يوم السفر إلى الاسكندرية ، وقفت تتأمل جسدها فى المرآة .. صدرها مازال ينمو ، وجسمها يمتلىء ويستدير ، استدارة فى كتفيها .. فى خصرها .. فى ردفيها فى سمانتى ساقيها .

قالت لنفسها وهى تتابع الاستدارات والثنيات : لاشك أنى جميلة ، وشعرت على الفور بهجمة اكتئاب ، لأنها عاجزة عن أن تفعل شيئا بهذا الجمال . كل الذين يستحقون هذا الجمال قد اهلكتهم الحرب . كأنها ستلقى بهذا الجمال فى بالوعة .

آه . لو كان كريم حيا . مازال يقول لها تزوجينى على سنة الله ورسوله .

أصبح الحلم الخيال هو الحقيقة .

أما الواقع فهو وهم كبير .

تلك الليلة مع الملك كانت وهما .

ما كان بينها وبين تونى برتولدى ، كان وهما .

كوستا ، كان وهما .

حتى أمها وابوها وبيتها فى شبرا والكنيسة وهى تتردد عليها .. كل هذا لم يعد

يقنعها بالواقع ، لم يعد حقيقيا .. لم تعد له وظيفة .

الواقع الذى يقول أنها ايطالية وهم . الواقع الذى يقول انها ابنة اميليو ساندرو وشقيقة ماريو وهم . كل هذا قد ضاع .

روما مدينة مفتوحة . وجثة الدوتشى ممزقة تدوسها الأقدام فى الشوارع .. الواقع تدوسه الاقدام . ياللعار .

لم يبق الا اليأس . واحلام رجل ميت .

كيف تثور على خيال كريم ؟ هل جنت ؟ لعلها ليست مثل بقية النساء ، ولكنها بكل تأكيد انثى جميلة .

وهى تريد أن تأكل بشراهة ، وتريد مالا كثيرا ، وتريد أن تكسب جائزة مسابقة جمال الشاطىء .

هاهى ترتدى المايوه ، وتخطر على شاطىء بلاج ستانلى .. كل ما فى جسمها جميل ، كله نضارة وحيوية ، وطابور الفتيان المصريين لايتركها ، ملكة وعرش ، وهى التى عرفت فعلا الملك الذى يجلس على العرش . ولكن عرشها هو الحقيقى ، وسوف تتفتح لها أبواب السينما . وسوف تصبح نجمة مشهورة . وسوف تأكل بنهم ، وسوف تحصل على المزيد من المال .

كانت تسبح بعيدا عن الشاطىء ، وكلما أرادت أن تعود لتعلن موافقتها على الاشتراك فى مسابقة الجمال شقت ضربات يدها الماء ، فتخرج من أعماق البحر ذكريات كريم ، رغم تفاهتها ، كلماته التى لامعنى لها ، مجرد هجص : تزوجينى على سنة الله ورسوله ، ماهذا الكلام ؟ إنها لم تأخذه فى حياته مأخذ الجد أبدا . وقتها كانت لاتفكر فى أن حياتها كما بدأت فى شبرا ، سوف تنتهى فى شبرا . والآن وهى تدرك أن عليها مواجهة الواقع وأن تحسم أمورها فى الواقع تهاجمها ذكريات كريم ، أشباحه ، فتشطرها شطرين ، تشطر أفكارها بل تشطر روحها . براءة أو عهرا .. زوجة أو عشيقة ، تذهب الى الدير وتختفى وراء أسواره ، أو تلقى بنفسها فى بحر المصريين تموت فى الدنيا وتدخل الدير ، أو تعيش فى الدنيا وتنتحر .

انها لم تعد قادرة على اتخاذ قرار . الكبار الذين كانوا يتخذون لها القرار ذهبوا لحالهم ، ابوها .. تونى .. كوستا .. موسولينى ، أما الأب لورنزو فلايعطيها قرارات ، يطلب إليها ان تحوم حوله ، تعترف له وتعترف وتعترف ، ويطلب لها الغفران ، ويناولها وتأكل جسده ، ويطلب لها الغفران ، ويناولها وتأكل جسده . والى متى ستظل قادرة على الاعتراف ، أن تتعرى . أم آن الأوان لأن تختفى وتنهى هذه الحياة التى انتهت فعلا الى لاشىء : لازوج ولابنت ولاولد . كل ماتخشاه ان يكون التصرف الوحيد الذى اصبحت تستطيع ان تمضى فيه لو

ارادت التمسك بالحياة أن تصبح عاهرة : جسدها مشاع بين هؤلاء الشبان المصريين وتعترف وتعترف وتطلب الغفران وتكفر عن خطيئتها ، وتتناول وقد أصبحت متطهرة ثم تعود الى الخطيئة من جديد .

عندما تترك الشاب المصرى يقبلها تشعر أحيانا أنها تقبل بعض الذل الذى يغفر لها ذنوبها ويسمح لها بارتكاب ذنوب جديدة ، هذه هى الدوامة التى فغرت فاها لتبتلعها لاينقذها من الدوامة شيء . كل ماقد يحدث وتراه ببصيرة خيالها هو السقوط المحتم وهى ليست ماريا المجدلية ، كما أن هذا البحر الذى تسبح فيه ليس بحر دموع . وهاهو وجهه ، يخرج من الماء باسما يقول لها تزوجينى على سنة الله ورسوله .

حاولت أن تتخلص نهائيا من هذه الصورة التى تضطهدها بلا مبرر ، والتى تلازمها سرا دفينا بينها وبين نفسها لايعرفه أحد من الأحباء غيرها . وبذلت جهدا حقيقيا لتتصور زواجا ليس فى الكنيسة من زوج يقولون إنه مسلم يستطيع ان يطلقها فى لمح البصر ، يستطيع ان يفرق ماجمعه الرب ، كما لو كان هو الرب يستطيع ان يخرجها من حياته قبل أن تعرف أنه أخرجها وأنه طلقها . لم تفلح فى قبول الصورة ولم تفهمها ، وضربت الماء بذراعيها بقوة . تضرب تلك الصورة التى تخرج لها من الماء ، وجه كريم وذكرياته وكلماته ، وخرجت لاهثة الى الشاطيء . وماكادت ترى نينا حتى صاحت فيها :

- أنا ميتة من الجوع .

قالت لها نينا عند عودتها إلى حجرتها فى الفندق بكامب شيزارى :

- لو كنت مسلمة كنت تخلصت من كوستا ، ولم تتعطل حياتى بينما هو يتمتع بحياته كأى وغد فى استراليا .

ولم تنتظر نينا مشورة أحد ، حتى ماريا لتقبل دعوة منير صاحب الكاديلاك ، والذى اتاح لها ولماريا فرصة تناول أشهى انواع السمك البوربون والصول ، والاستاكوزا واللوبستر ، فى ولائم كان يقيمها فى أى مكان يذهب اليه فى الاسكندرية سواء كان مطعم اكسينافون فى المكس أو معسكره من الخيام الذى اقامه على الشاطيء المهجور بالمندرة أو حول حمام سباحة الميزونيت فى سيدى بشر . أو فى بيت عائلته بجليمونوبولو ، واندفعت نينا فى علاقتها بمنير بأسرع مما تتصوره أو تتوقعه ماريا التى أذهلها أن ما كانت ترفضه فى خيالها ، أو تتشكك فيه ، اوتحتار فى اتخاذ موقف منه ، إذا بنينا الأكبر سنا ; والأكثر عقلا تقبله بل تقتحمه اقتحاما ، فها هى فى احضان شاب مصرى مسلم قد يكون أصغر منها سنا ، وهاهى تزوره فى بيته وتتعرف على أمه وشقيقاته البنات اللاتى كن يتفرجن عليها وعلى ماريا بعيون فيها فضول ودهشة دون أن يبدين مايجرح

احساس نينا ، وعندما اقامت العائلة فرح سهير شقيقة منير فى سان استيفانو ، لم يكن هناك دين ولاطقوس دين ، كان هناك رقص وغناء وطبل وزمر ، وكان الحديث على الموائد عن الطعام والملابس والنقود التى انفقت وثروة العريس وثروة العروس . وحظ سهير ، ولم يكن هناك اعتراض على وجود نينا ولاصديقتها ماريا . وكانوا يقولون : نينا قصيرة ومكيرة ، اما ماريا فطويلة وطيبة ، فتقول لهم نينا : طويلة وهبلة .

ولم تقبل ماريا الدخول فى علاقة مع شاب مصرى مسلم أو مسيحى مثلما فعلت نينا واكتفت بدور البنت السهلة الصعبة التى تسمح بقبلة وقد يعانقها الشاب أو يعتصرها بين يديه ، ولكنها منذ وقت بعيد ، منذ أيام كوستا لم تعد تسمح بأكثر من هذا ولقد اكتشفت أن جسدها قوى يساعدها على المقاومة بشراسة إذا ماأراد الشاب اكثر مما تسمح به . ولكنها كانت تقول أحيانا لنفسها إن مقاومتها وشراستها غير مفهومتين .

كانت تخلط فى أعماقها بين ماهو مخجل ودنس وبين ماهو طاهر وربانى . بين ماهو للأرض وماهو للسماء ، بين مملكة الفناء ومملكة البقاء . وكانت المعانى تتجسد أمامها . فالطهر أو الدنس ، والأرض أو السماء ، وحتى الفناء أو البقاء لها صور متعددة ، أحيانا تراها فى الوجوه وفى العيون وفى الطعام فى الأفواه ، أو الأفواه المفغورة بلا طعام . وأحيانا تراها وهى راكعة تصلى أمامه فى سانت تيريز ، فترى الخير الذى خرج منه والشر الذى أحاط به عندما هبط يمشى بين الناس كإنسان .

وكانت تسأل نفسها ، ألايعرف هؤلاء المصريون هذا الصراع بين الخير والشر ، إن تصرفاتهم تبدو كما لو كان الصراع لايحتدم فى نفوسهم والخير لايلتقى بالشر فى أعماقهم فيتقاتلان ، بل لكل شىء وقت وأوان ، وهذا وذاك يعيشان فى اعماقهم كما لو كانت أجسادهم أوانى فارغة ، إذا امتلأت بالخير امتنع عنها الشر حتى تفرغ كل مالديها من خير ، فإذا امتلأت بالشر امتنع عنها الخير حتى تفرغ كل مالديها من شر .

وعلى أية حال لم تعد تخشى المصريين وهى واثقة من أنهم أحسوا بذلك حتى فى العمل ، فالزبائن يبتسمون لها اكثر من ذى قبل . نظرة منها اليهم ، أو التقاء عيونهم بعينيها يضىء الابتسامة على الشفاه رجالا أو نساء بلا استثناء تماما مثلما كان يبتسم كريم .

لاشك أنها تستطيع ان تكون صديقة لهم ، وربما اكثر ، ولكنها لاتحاول لأنها مازالت مشغولة بنفسها ، بدوامتها التى لاتسمح لها بالانطلاق كما فعلت نينا ، فهى تدور وتدور فى دوامة ، لن تخرج منها حتى يكون لها كيان ، وتشعر بأن لها

وجودا لاتدرى كيف تشعر به أو كيف تحدده فالرغبة قوية عارمة ، ولكن محتواها غامض الى اقصى الحدود .

احيانا كان ينتابها شعور طاغ بأن الأوان قد أن لأن تلقاه

من هو ؟

إنها لاتدرى ، ولكن رغبتها أقوى من أن تتجاهلها حتى أصبحت واثقة من انها سوف تراه وستجده أمامها وسيحتضنها ، وسوف تضمه اليها وتقبله كما لم تقبل أحدا ، بلا خجل .. بلا تردد ، ولسوف تعطيه كل مايريد ، واكثر مما يتصور أنه يريد ، سوف تغدق عليه مما لديها وهو كثير لاينضب .

ولكن من هو ؟

تظل تسأل حتى تعاودها صورة كريم ، فهو الميت البديل لكل حى ، هو نهاية المطاف وخاتم الرؤى والخيالات ، كأنه ملاك الموت يطلب إليها ان تكف عن الأمل فى الحياة .

ذهبت إلى الكنيسة .

سانت تيريز هى الملجأ الأخير . تطلب إليها معجزة لاتدرى ماهى .

جلست الى مقعد تصلى . تحاول أن تصلى ، كانت الصلاة تجتاحها كعاصفة تمحو الكلمات ، فلا يبقى الا جوهرها يتردد بقوة فى فضاء أعماقها كأنها الكون كله ، وانتابتها رجفة وهى ترى صورته .

وجهه يلاحقها حتى هنا ، بين يدى سانت تيريز . أو العاصفة هى التى تلاحقها .

سمعت صوتا ملهوفا يصرخ فى صحراء أعماقها المترامية الأطراف .. صوت سمعته كل الدنيا ولم يسمعه أحد . كان صوتها صوت ماريا اميليو ساندرو الجالسة على مقعد فى كنيسة سانت تيريز وعيناها مشدودتان الى المذبح ولكنها ترى من ورائه فضاء لانهائيا هو نفس الفضاء فى أعماقها ، وكانت تسبح فيه .

وكان صوتها الذى بدأت تتبين كلماته بصعوبة يتوسل :

لو كان يعود .. لو كان يعود .. لو كان يعود .

لو اسمعه مرة أخرى ، بوجهه البشوش بعينيه القويتين ، يقول لى : تزوجينى على سنة الله ورسوله .

أغمضت عينيها ، لم يكن هناك خارجها ماتريد أن تراه ، كل ما فى الخارج فى الداخل .. كل ماتستطيع ان تراه هو مالاتراه وكانت العاصفة تتحول إلى بكاء ، امطار سلام وسكون .

صباح اليوم التالى . كانت تعبر الشارع فى طريقها إلى عملها . ماكادت تخطو فوق الرصيف المقابل حتى رأت ذلك الوجه يطل عليها .

كان واقفا أمامها .
ذلك الشبح تجسد ووقف أمامها .

ذلك الحلم .
ذلك الرجل ..
إنه كريم .. نعم إنه كريم .
صرخت فى أعماقها : أنت لاتستطيع ان تفعل هذا بى ، لاتدرى : أقالتها لهذا الشبح أم قالتها لسانت تيريز ، أم لربها الذى فى السماء .
لوصح أنه كريم فهى معجزة . وهى التى طلبتها ، والرب هو الذى حققها ومهما كان التفسير الذى ستسمعه وهى لابد أن تسمعه فإنه سيظل قد بعث حيا .
اندفعت نحوه ، وهو يرقبها بدهشة ، وليست على شفتيه ابتسامة ، وقبل ان تقول كلمة ، كانت تعانقه والدموع تنهمر من عينيها .. دموع فرح بهذا الذى جاءت به المعجزة ، من بين اموات الحرب ، كلهم ذهبوا وانقضت أيامهم من ماريو الى الدوتشى .
أما كريم فيعود .
لاتدرى ماذا قالت له . ولكنها سمعته وهو يمسك بذراعيها ، وينظر اليها فى هدوء نظرات حادة ويردد :
ـ ولكنى حى .. عمر الشقى بقى .. فعلا كانت هناك شائعة انى مت فى تلك الغارة ..
وأردف غير مصدق :
ـ هل أزعجك موتى .. كنت أظن أنك لاتهتمين ..
لم تعد قادرة على الاحتمال .. كل شىء يتمزق .. يتناثر ، كم تلعنه .. كم تكرهه .. كم تحتقره .. كم تشتاق إليه .
أهى تدعوه لها . أم هذه هى نهاية المطاف ، نهاية الاسطورة والحلم .
هاهو أمامها تراه بوضوح . نظراته هى نفس النظرات ، والآن ماذا بعد .
هاهى المعجزة قد تحققت .
فماذا بعد ؟
أكانت معجزة للحظات ثم لاتكون معجزة وتعود لعزلتها ، أم هى معجزة باقية .
قالت له بتحفظ مفاجىء اكتسى به وجهها ، وكانت فى قرارة نفسها راضية عن نفسها لأنها استطاعت أن تجمع ارادتها وتنهى هذا الموقف الشاذ :
ـ أنا سعيدة برؤيتك ، سأذهب الآن تأخرت عن موعدى . سألها وهو يتفحصها كأنه يريد أن يعرف المزيد :
ـ هل أراك ثانية ؟

قالت بسرعة :
ـ لا أعرف .
وقالت لنفسها وقلبها يدق بعنف : هذه أول مرة يطلب فيها رؤيتى بنفسه .
وسمعته يسألها بإلحاح :
ـ ماهو عنوانك ؟
وامتدت يده الى سترته يخرج مفكرة صغيرة وقلما . أملته العنوان ورقم تليفون المحل ، وقالت له بلهجة عملية ، تعودت أن تقولها لكل الشبان الذين يدعونها للخروج والرقص :
ـ لاتطلبنى الا بين الواحدة والواحدة والنصف . لن يسمحوا لى بالكلام فى التليفون فى غير هذه الفترة .
استمع اليها صامتا . وهز رأسه وانصرف .
ولكنها الآن واثقة من أنه سيعود ، مستحيل ان يكون هذا اللقاء هو نهاية تلك الصلة التى لاتعرف كيف قامت . أو كيف تطورت حتى أصبحت معجزة .
إنها صلة حتى الآن واهية . فى غاية التفاهة ، ولكنها توشك ان تكون شيئا ما .
هذا هو ماسوف تحدده الأيام القادمة .
هذا هو مايحدثها به قلبها الآن .

الفصل العاشر

لم يكذب قلبها ، ولكنها لم تتوقع أن يأتي لزيارتها في بيتها مساء اليوم التالي . جاء بلا مقدمات ، ودق جرس الباب ، وكانت في الحمام وفتحت له امها الباب ، وسألته :

ـ من أنت ؟

قال ببساطة :

ـ أنا كريم .

وقدم لها باقة من ورد ، كان يحملها في يده .

وقالت السنيورة ماتيلدا ، فيما بعد ، وهي تصف شعورها في تلك اللحظة ، أنها خافت أول الأمر ، وتوجست شرا أن يكون هذا القادم لصا معتديا يريد اقتحام البيت بطريقة مبتكرة ، مما أصبح أمرا معتادا بعد الحرب ، وكانت ـ وهي تدعوه للدخول ، وباقة الورد في يدها ـ خائفة أن تواجهه بالرفض ، ولكن ماتيلدا تعود وتقول أنها ليست واثقة تماما من أن هذا هو ماكان عليه شعورها ، فهي مازالت تذكر عينيه الواثقتين اللتين ليس فيهما اجرام ، وظنت للحظة أنه جاء لأمر خاص بالعمل ، ولكن بقيت الورود الحمراء ، والقرنفل والبانسيه الأزرق تحيرها في قطع الشك باليقين . حتى دخلت على ماريا الحمام ، وقالت لها أن رجلا اسمه كريم ينتظرها في الخارج .

هتفت ماريا :

ـ أين . هنا في البيت ؟

وجه ماريا ، هو الذي اخبر الأم بكل شيء . أيقنت أن بينها وبين ذلك الشاب شيئا ما لن ينتهي على خير . وجثم شيء ثقيل على قلبها وهي تسأل ماريا هامسة :

ـ مسلم ؟

قالت ماريا :

ـ نعم

وبدأت ماتيلدا تحقيقا صارما سريعا . وماريا أمامها مازالت عارية ، كما ولدتها .

ما الذى جاء به ؟ ماالذى بينكما ؟ إنه ليس مثل الأخرين الذين تذهبين معهم للرقص والرحلات .

كانت ماتيلدا لاتعنيها كثيرا حفلات الرقص والمرح ومغامرات الشباب . مادامت ماريا تحتفظ بانتمائها . مادامت تذهب الى الكنيسة كل يوم أحد ، وتلتقى بمن تنتمى اليهم وينتمون اليها . هؤلاء هم السند الأخير ، الحماية الأخيرة ، خط الدفاع الأخير ، أمام هذا الطوفان الهمجى الذى يهدد باجتياح كل شىء ، بعد ان ذهب الجميع ، ماتوا او انهزموا وسقطوا مع الدوتشى .

كانت ماريا تغطى جسدها بسرعة ، حتى أصبحت داخل بلوزة حمراء وجوب أبيض ، وكلمات أمها تطاردها ، أو تطردها ، وهى لاتفكر فى شىء الا ان تفرغ بسرعة من ارتداء ملابسها لتسرع الى كريم .

لافائدة من مناقشة امها ، إنها لاتدرى ماذا تقول ، تكيل الاتهامات . وتستثير المخاوف وتتوسل ، وتهدد ، حول أموز لم تتكلم فيها أبدا مع كريم . كيف قفزت الأم الى هذه النتائج ؟ كيف أيقنت أن بينهما كل هذا الذى تعلن معارضتها له ؟

مسلم جاء ينتزعها الى عالمه . جاء يدعوها الى خيانة مجتمعها ، جاء يحولها الى منبوذة . جاء يفتح ثغرة جديدة فى بناء لابد أن يدافع عن نفسه حتى لايتعرض للانهيار .

أعجب من هذا كله ، أن امها تتهمها بأنها وقعت تحت تأثيره ، وانها خاضعة لرغباته ، وانها توشك بالفعل أن تخون وأن تقع أسيرة له .

قال لها كريم وهو يستقبلها واقفا ، انه جاء يشكر لها عاطفتها نحوه ، لم ينم ليلته ، ظل وجهها وهى تنظر اليه كميت عاد الى الحياة ، ملازما له ، لايستطيع أن يتخلى عنه .

وسمعت السنيورة ماتيلدا ، حكاية موته وكيف أكتشفت ماريا ، بالامس فقط ، أنه مازال حيا . وامتلأت ماتيلدا رعبا ، عندما قالت ماريا انها كانت تصلى فى سانت تيريز ، قبل ان تراه فتذكرته ، إن مثل هذه القصص التى تتدخل فيها سانت تيريز ، تثير الريبة ، فكأن مكائد تدبر ، فى مكان ما ، لتوريط ماريا ، وماذا يكون أمرها ، لو تورطت ماريا مع هذا الشاب المصرى المسلم .

وقبلت ماريا بجرأه تتحدى تحذيرات أمها ، دعوته لها للذهاب الى سينما بارادى ، ورفضت السنيورة ماتيلدا الدعوة رغم إلحاحه . ورغم انها تأكدت من أنه صادق فى دعوته . وعندما خرجا ندمت لأنها لم تخرج ، ولأنها فكرت فى أن

ذهابها معهما ، فيه معنى قبولها للعلاقة بينهما ، وليس فيه معنى أنها ستواصل مقاومته ، لانتزاع ابنتها من براثنه . وتنهدت وقالت لنفسها ماكنت استطيع الخروج فى كل الأحوال دون أن أرهق جسدى المريض .

وقال كريم لماريا ، وهما يتناولان العشاء على مائدة على الرصيف بمطعم الباريزيانا بشارع الألفى :

ـ منذ الأمس ، وانت معى فى كل لحظة .. فهمت ما الذى كان بينى وبينك ، منذ رأيتك لأول مرة .. منذ أول لحظة ..

وضحك وهو يقول :

ـ منذ احتجاجك بأنك لست فترينة .. والصلة بيننا تزداد عمقا ، سواء كنا معا ، أو افترقنا . كيف حدث هذا ؟ ، لاأستطيع ان اجد اجابة مقنعة لهذا السؤال ولكنى اعترف لك ـ وهذا هو ماأدركته منذ الأمس ـ بأنى كنت أريد أن اقترب منك ، وان ارتبط بك ، وكنت اعبر عن رغبة جادة فى أعماقى ، عندما قلت لك ذات مرة تزوجينى على سنة الله ورسوله . كان يبدو لك ولى أيضا ، انى امزح ، ولكن لماذا اخترت هذا اللون من المزاح ، لماذا قلت هذه الكلمات بالذات ، لقد كانت تعبر عن شىء دفين هنا فى صدرى ، وأنا واثق الآن من أنى لم أكن امزح ، بالامس وأنا ارى وجهك وأنت مقبلة على ، يداك تمتدان ، تبحثان عنى ، لتتأكدى أنى موجود ، وانى لم أمت ، كنت اشعر فى نفس اللحظة ، كما لو كنت أولد من جديد ، فلم يحدث ان لقيت مثل هذا الاهتمام ، ومثل هذه اللهفة ، وهذه الفرحة بوجودى من أحد ، واذا كانت أمى قد عرفت هذه الفرحة لحظة ولادتى فكنت وقتها لاأعى شيئا مما يحدث ، أما الوعى فقد شعرت به معك . لقد شعرت وكأنك عطية أتلقاها من السماء .

وأمسكت يده بيدها عبر المائدة وقال :

ـ عندما امسكتنى بيديك ، عدت الى الحياة .. هذا هو ماأردده لنفسى الآن .. كانت البداية غير واضحة ، ولكنها كانت موجودة ، وكنت تتحدثين معى ، ثم تهربين فجأة ، وترفضين الاعتراف بوجودى ، وبالأمس فقط ، ادركت ، أنك ايضا ، كنت لاتعرفين حقيقة ماتفعلينه .

استمعت اليه ، وهى تأكل الاسباجتى ، بالصلصة البولوينز الثقيلة باللحم المفروم ، وبائع الفستق يأتى يعرض عليهما أن يلعب معهما جوز وفرد ، وبائع الجمبرى يلح فى أن يشتريا منه ، وهو يتحدث وهى تسمع ليس فى كلامه مايثير دهشتها أو قلقها ، بالعكس كانت تشعر كما لو كانت تسمع هذه الكلمات للمرة الالف أو ربما اكثر ، وكانت تشعر بالراحة ، وتتذوق اللحم المفروم ، وتقول لنفسها أن صوته رخيم .

عندما فرغ من حكايته ، قالت بهدوء ، وبوضوح ، لاتعرف متى انتهت اليه
ـ مضى وقت طويل .. لم أشعر فيه بالراحة ، مثلما أشعر الآن .
قال لها ضاحكا :
ـ ربما .. لانك أخذت حماما قبل خروجك .
قالت ضاحكة :
ـ ربما .
ولكنها عادت وقالت باصرار .
ـ لقد تعبت كثيرا .
قال بسرعة:
ـ انت دائما فى مشاكل .
قالت تزفر هواء من صدرها :
ـ فوق ماتتصور .
قال باسما :
ـ هذا طبيعى .. لانك جميلة .
قالت وهى تحدق فى وجهه :
ـ اتغازلنى ؟
قال وهو ينظر اليها بثبات :
ـ مابيننا .. اكثر من هذا .
قالت فى اطمئنان :
ـ ليس بيننا شىء .
قال بهدوء :
ـ انتظرى .
ثم رفع صوته :
ـ هل تعرفين من أنا .
نظرت إليه فى دهشة .. انها لاتعرفه . ومع ذلك هى تعرفه وها هى تسمعه يسألها هل تعرفين أمى ؟ ألم احدثك عنها ..
نعم انها تذكر حديثه عن امه ، وتذكر كل حديث جرى بينهما .. وها هو يسألها اذا كانت تعرف انه محام درس القانون فى الاسكندرية ، ويعمل هناك . وسوف يشترى سيارة أوبل هناً فى القاهرة ، ثم يعود الى الاسكندرية .
وقال باسما :
ـ لست مثل هؤلاء الاغنياء .. كل مالدى من مال اكسبه من عملى .
وقطع كلامه عن نفسه وسألها فجأة .

ـ ماهى حماقاتك الأخيرة ؟
قالت بسرعة :
ـ كثيرة .
سألها :
ـ هل استطيع ان اساعدك ؟
قالت بسرعة بسخرية واضحة ، استعادتها عندما سمعت منه أنه سوف يعود الى الاسكندرية بعد شراء السيارة :
ـ ليس هناك سوى اقتراحك .
وقالت وهو يردد معها فى نفس اللحظة نفس الكلمات :
ـ ان نتزوج على سنة الله ورسوله .
ونظر اليها طويلا وقال :
ـ لم يعد هذا .. مجرد هزل .. أنت تلعبين بالنار .
سألته :
ـ ماذا تعنى ؟
قال :
ـ سأتزوجك فعلا على سنة الله ورسوله .
قالت هازئة ، ربما من نفسها اكثر من أى شىء أخر :
ـ هذا لن يحل المشاكل .. إنه سيعقدها اكثر .
وأردفت كالمخاطبة نفسها :
ـ أمى تخشى أن يكون بيننا شىء .
قال :
ـ بسبب الورد .
ثم اردف :
ـ ولكن .. هناك فعلا شىء ..
ترددت قبل أن تعترف :
ـ جاءت لحظات .. وأنت ..
ونظرت اليه قبل أن تكمل فى عينيها حزن وارتباك ..
ـ وأنت ميت .. تمنيت فيها لو أنك كنت حيا .. واتزوجك لأهرب من هذه الدنيا ..
قاطعها ساخرا :
ـ تهربين من الدنيا ؟ الزواج دخول دنيا وليس خروجا منها .. أنا لست ديرا ..
قالت ضاحكة :

ـ أعلم .. فأنت الشيطان .

قال :

ـ ملاك .. شيطان .. هذا كلام فوق طاقتى .. كل الذى اعرفه انى محتاج اليك .. ومتمسك بك .. وهأنذا حى .. وافكر فى أن اتزوجك ..

قالت وهى تنظر فى عينيه :

ـ جئت الى القاهرة لتتزوجنى .. أو لتشترى سيارة أوبل ؟

قال :

ـ أنا أردت شراء سيارة ..

ورفع رأسه الى السماء مشيرا بيده :

ـ ولكن اوامر من فوق .. تقول لى .. ان سر قدومك الى القاهرة .. هو أن تتزوج ماريا ساندرو .

قالت بصوت غلبه الانفعال :

ـ انـت الآن تتكـلم جادا .

قـال :

ـ بكل تأكيد .. نعم .

قالت :

ـ لو عرفتنى .. على حقيقتى ...

وسكتت ولم تجد فى نفسها قدرة على مواصلة الكلام . كما كانت تظن أنها قادرة على ان تتكلم وان تبوح له بما فى أعماقها من متاعب وأحزان وخطايا .

أعجبها أنه لم يطلب إليها أن تكمل . لو كان ألح لتكلمت ولكنه كان سيرهقها ، وسيخرجها من هذا الشعور بالراحة الذى تنعم به ، رغم مافى الموقف من انفعالات .

قال هامسا :

ـ اريد فعلا ان اعرفك .. ولكن ربما كان الافضل ان تعرفينى أولا .

واتفقا على لقاء آخر . وكانت تعرف ان امها ستقف لها بالمرصاد ، وقد استدعت نينا لتؤازرها فى الصمود ضد هذا المهاجم الوقح . وتوقعت ماريا أن تؤيدها نينا فى علاقتها بكريم ، ولكنها هاجمت هؤلاء العرب المسلمين ، فهم لايعرفون العواطف ، حيوانات شهوانية ، وانفعالاتهم مؤقتة ، كذابون . قلوبهم غليظة . كانت تستمع لنينا وتدهش لأنها لم تقطع علاقتها بمنير . واستمرت ماريا فى مقابلة كريم ، والمجهول يفتح فاه مستعدا لالتهامها ، لم تعد الأحلام والخيالات تنفع مع هذا الواقع الجديد ، ولا الدموع تفيد ، ووجه كريم الذى مات وكانت تتخيله ، غير وجه كريم الذى تراه ، والذى اشترى السيارة ، وسافر بها

الى الاسكندرية ، ليعود كل نهاية اسبوع ليراها ، يعود لها وحدها ، ولاشيء آخر .

وكانت ترقد على السرير ، في يدها مجلة تتصفحها ، عندما وقع نظرها على لوحة مرسومة لقصة حب ، وسألت نفسها هل هى تحب كريم ، وعادت تواجه نفسها ، لماذا تسأل ، وهى تعلم عن يقين الجواب .

الى متى يظل الأمر سرا . انها تشعر بأنها حرة ، ولكنها مقيدة بقيود صارمة ، ليست مفروضة من أمها ، ولامن نينا ، ولا من ابيها ولا من الكنيسة ، ولا من الدوتشي ، ولا من أى أحد ، انها قيود يفرضها شعورها بأنها تحب . نعم انها تحب كريم . والحب الذى مازالت تحاول ان تتجاهله ، ينهكها ، فترقد كما تفعل الآن فى السرير ، وتقول لنفسها إنها مريضة . ولكن مرضها لايمنعها من الخروج معه عندما يأتى يوم الخميس . فهى مريضة وتشرب الشاى معه فى جروبى ، وبالامس كانت مريضة ، وتشاهد معه فيلم فريد الأطرش . ولما سألها ان تذهب معه الى طبيب يثق فيه ، رفضت

هل تذهب الى القسيس وتعترف ؟

قالت لنفسها ، لابد وان اعترف له بكل شىء ، لابد ان يعرف تونى ، وكوستا ، والملك ، لافائدة من ارجاء الكلام ، ولابد من مواجهة التأجيل بمرضها اكثر ، وهى لن تعترف للأب لورنزو . هذه المرة ستذهب اليه وتعترف ، ولتر ماذا يكون .

وكأنه أدرك أنها مستعدة للكلام ، وان فترة الانتظار التى طالت والتى كانت تؤجل فيها كل شىء قد أشرفت على نهايتها . فقال لها وهو يمسك بيدها يقودها الى مائدة فى مطعم سانت جيمس حيث يتناولان عشاءهما وهما يطلان من شرفة المطعم على السينما فى الحديقة :

ـ أنت تتعاملين معى بطريقة غريبة .. ولست أدرى ماذابك .. ولكنى كما ترين .. صابر .. وأقول لك أنى احبك .. واريد ان اتزوجك .. وأنت لاتريدين سوى الانتظار .. انتظار شىء مجهول .. على أى حال .. لاأريد ان اضايقك .. أو أفرض عليك شيئا تقتنعين به ..

إنه يدعوها للاعتراف ، ويدرك أنها مستعدة للاعتراف وانطلقت فى الكلام .

استمع اليها صامتا . حبس انفاسه فلم تسمعها . كانت تتكلم لنفسها كأنها لا تراه ، لم تتعود أن تعترف لشخص تراه ، تعودت ان تعترف لذلك الغائب الحاضر ، للاب فى السماء ، الذى يغفر الخطايا والذنوب .

استمع اليها وتكلمت وتكلمت ، حتى لم تجد ماتقوله ، وكان الظلام قد أقبل ،

وبدأت السينما تعرض فيلما هزليا لاخوان ماركس .

وكان يضحك بجوارها ، ولكنه لم يقل شيئا . كان صامتا على غير عادته ، وعندما انتهت السينما ، ركبت معه الاوبل ، وتحركت بهما ، صامتين ، حتى وصلت الى البيت ، وقال لها قبل ان تهبط :

ـ سأراك الخميس القادم .

وهبطت ، وكأنها لم تقل شيئا ، ولم تعترف بشيء ، وكأنه لم يسمع شيئا . ولكن صمتهما ، أو صمته هو ، كان يدل على أن أحداثا خطيرة سوف تقع . فليست هذه اللحظات هى نهاية الاعتراف ، ومازال كل شيء معلقا ، ومازال الغفران لم يتحقق ، والتكفير عن الخطايا لم يتم .

فوجئت برسالة عاجلة منه ، من الاسكندرية ، كان ذلك يوم الاثنين ، وارتعشت يدها وهى تفحص الرسالة قبل ان تفضها ، وبعد ان أصبحت واثقة من انها منه . وأنه يكتب لها ، ليقطع كل صلة بينهما . واختار اسلوبا مهذبا ، فلم يواجهها بالقطيعة وفضل ان يكون الخطاب هو الفاصل بينهما .

لم تفهم ماتقرؤه ، مضى وقت وهى تتبين ان السطور تحمل معانى غير التى كانت تتوقع ان تقرأها . انه يدعوها للسفر معه يوم الجمعة القادم الى المنيا لتزور أمه ، التى تنتظرهما ، ويطلب إليها الاستعداد لهذه الزيارة .

خفق قلبها ، ودق بشدة ، هذا هو جوابه على اعترافاتها ، ولكنها لاتستطيع ان تتبين بوضوح طبيعة جوابه . سوف تلتقى بأمه الفلاحة ، سوف تلتقى بهؤلاء الآخرين الذين جاء منهم سوف تلتقى بالغرباء المتأخرين . أى شوط قطعته من الملك الى أمه ، من تونى برتولدى الى كريم ، كيف تجمع ذاكرتها هذه المتناقضات . ولكن تونى لايعرف ، أما كريم فيعرف ، لقد أسلمت نفسها له .

قابلتها قرية « س » كما لو كان من الأمور العادية ان تدخلها فتاة كستنائية الشعر ، سافرة الوجه كل يوم ، وقالت لها امه مرحبا ، ومسحت بكف يدها على صدرها ، ونظرت اليها باعجاب ، وقالت لها إن اسم ماريا جميل ولم تحدثها فى الدين ، وحدثتها عن الحمام بالفريك ، وطواجن السمك ، والعصيدة ، وادخلتها حجرة نومها واجلستها بجوارها على السرير وفتحت لها صندوقا امتلأ بثعابين وأساور وخواتم وحلقان وكرادين ، كلها من ذهب ومرصعة بالماس .

وكانت تحدثها عن كريم ، كما لو كانت تتوقع منه أن يأتى لها بسنيورة ، دمية حلوة ، عروسة مثلها ، ولدهشتها تذكرت أباها وهى تستمع إليها ، ايام كانت دمية وكانت حلاوتها فى نظره ، هى كل شيء حتى افسد هو بنفسه ماكانت فيه عندما

عرضها كدمية لطبقة الملوك والنبلاء ، عندما ركبت رأسه احلام الدوتش وأمجاد القياصرة ، عندما فتح الباب للحرب التى مات فيها ماريو ، وخرج منها كوستا ، ليأسرها ويخضعها له . لولا أن التقت بكريم ، فيما يشبه المعجزة ، أو هى معجزة انتهت بها الى هذه الدار ، فى هذه القرية ، تجلس على السرير النحاسى ذى الأعمدة الاربعة فوقه ناموسية من التل والدانتيللا ، ومعها أم كريم ، على رأسها الآن منديل بنفسجى ، وشعرها مصبوغ بحناء جعلته احمر متوهجا .. شعر ناعم على وجه خمرى ، أملس صبوح ، وعينان واسعتان فيهما مكر .

قالت لها أمه :

ـ أول ولد تسمينه صفوان .. أما البنت فسمها على أسم أمك .. ماأسمها :

قالت ضاحكة :

ـ ماتيلدا .

حاولت الام ان تنطق الأسم :

ـ مـا .. مـا ..

كررت ماريا :

ـ ماتيلدا .. ماتيلدا ..

قالت الأم :

ـ سمها مى ..

تحدثتا عن الأولاد ، ولم تتحدثا عن الزواج ، وتحدثتا عن اسماء الصبيان والبنات ، كأن الزواج قد تم والحمل قد تم .

فى عودتهما سألها :

ـ هل أنت راضية ؟

قالت له بسرعة :

ـ هل أمك راضية عنى ؟

ضحك وقال :

ـ انت تعرفين شعورها نحوك

بعد قليل ، قالت ، كأنها تخاطب نفسها :

ـ هل أنت راض عن أمى ؟

قال بسرعة :

ـ طبعا .

قالت بسرعة :

ـ كذاب .
وضحكا .
قال لها فى القطار :
ـ أى أيام الأسبوع تختارين للزواج ؟
فكرت ، لماذا لايسألها فى أمر الدين .
قالت مترددة :
ـ ولكن الاجراءات الأخرى :
سأل بدهشة :
ـ ماذا ؟
قالت تبادله دهشة بدهشة :
ـ أنا كاثوليكية
قال :
ـ هذا غير مهم .
تزايدت دهشتها وهى تسأله :
ـ اليس المفروض ان ...
وسكتت . ثم أكملت .
ـ انت تقول على سنة الله ورسوله .
قال :
ـ لا .. نتزوج وتحتفظين بدينك .
قالت بسرعة :
ـ سأذهب الى الكنيسة ، وأسأل الأب لورنزو .

الفصل الحادى عشر

تبدى أمامها محيط رهيب تقف على شاطئه ولاتدرى كيف تواجهه . سألت نفسها فى فزع ، هل أقبل الإسلام دينا ؟ كان الفزع من نفسها ، من هذا الذى توشك ان تتورط فيه . هل قبولها الزواج على سنة الله ورسوله ، يعنى أنها ستترك الكاثوليكية وتدخل الإسلام . الآن أصبح السؤال واضحا محددا ، رغم أنه قال لها « نتزوج وتحتفظين بدينك » فهى لاتحتفظ بدينها لأنه هو الذى يريد ذلك ، ثم لماذا لايفكر هو فى تغيير دينه . إن كلماته جعلتها تفكر فى ضرورة الذهاب الى الكنيسة ومقابلة الأب لورنزو ، ولكنها وهى فى طريقها إليه تدرك مع كل خطوة تخطوها أنها مقدمة على أمر لاصلة له بالحب والزواج من كريم .

واستمع إليها الأب لورنزو بوجه هادىء خال من الانفعال ، لولا مسحة حزن فى عينيه ، وما كاد يتبين مشكلتها حتى قاطعها هامسا : مسكينة أنت ياأبنتى .. أى شقاء تعانين منه ؟ ولكنك تعرفين أن الذى تريدينه ليس فيه خلاصك ..

وصوب إليها عينيه حزينتين نافذتين ، وسأل بصوت قوى :

ـ أى جريمة ارتكبها أولادك .. حتى تعرضيهم لمثل هذه التجربة ؟

همست :

ـ ولكنى سأتزوجه .

قالتها وهى تتشبث بالمعنى الوحيد الذى تعتمد عليه لتواصل حياتها ، ولكنها وجدت نفسها تقول فى نفس اللحظة :

ـ سأتزوجه هنا فى الكنيسة .

قالتها كما لو كانت تؤكد لنفسها أن الكنيسة لن تتخلى عنها لولا ان الأب لورنزو قال فى هدوء قاطع :

ـ الزواج يا ابنتى سر من أسرار الكنيسة .... كيف تسمح به لغريب عنها ؟

نظرت إليه ، كان وجهه عنيدا بقدر ماكان تقيا ، وورعه فيه صرامة وحزم ، اكثر مما فيه من تسامح وطيبة . كانت تتوقع منه قبولا لكريم ، فهى لاتتصور أنه

شيطان تسلل إليها لينتزعها من أحضان أمها الكنيسة ... لقد عاد إليها كريم بمعجزة من سانت تيريز . أعادته إليها لأنها متعبة وحيدة ، لأنها توشك أن تضيع بعد أن تخلى عنها الجميع .

وسمعت الأب لورنزو يسألها عن كريم ، وعن أهله ، وعن عمله ، فلما سألها عن عنوانه ترددت في الإجابة .

فقال لها بهدوء :

ـ يجب أن أزوره ... وأتحدث معه .. هذا في صالحكما ياإبنتي .

قالت له :

ـ سأسأله .

فنظر اليها طويلا ، كأنه يتفحص أغوارها ، ثم أطرق برأسه وهمس :

ـ حسنا .

ثم أردف وهو يرفع رأسه مصوبا عينيه نافذتين صارمتين :

ـ لو أنه شخص عاقل فلن يرفض مقابلتي ... أخبريه أني أريد أن أحدثه حديث العقل .. وأنه ليس من مصلحة أحد أن يتجاهل مثل هذا الحديث .

وقال كريم وهو يسمع ماترويه له ماريا :

ـ إنه أمر طبيعي أن يحرص عليك ، وأن يحاول أن يتعرف عليّ ... وهذا تصرف أحترمه لأنه يصدر عن شعوره بالمسئولية ... وسوف أذهب اليه ، ولن أنتظر حضوره .

كان الأب لورنزو يتناول طعام غدائه ، عندما أخطروه أن الاستاذ كريم صفوان المحامي يريد مقابلته ، وانتظر كريم في حجرة صغيرة بها مكتب صغير ، وأريكة من الجلد . ومقعد خيزران ، والجدران عارية إلاّ من صليب كبير من خشب عتيق ، ورائحة بخور عبقها خفيف ، والصمت يخيم على المكان ، وتمنى كريم لو أنه سأل ماريا عن شكل الأب لورنزو ، فعندما قالوا له إنه يتناول طعامه ، ظهرت في مخيلته صورة رجل سمين ضخم له كرش ، ومثل هذا الرجل ، السمين، غالبا مايكون صريحا مرحا ، ولن يكون عصبيا حاد المزاج ، ولكن ما أدراه أن مايراه في خياله ، هو الصورة الصحيحة . كان يريد أن يعرف الى أى مدى سوف يكون تأثير الأب لورنزو على زوجته . وكأنه منافسه ، أو على الأقل هو الرجل الذى قد تقول ماريا يوما ما : ليتنى سمعت كلامه ، وليتنى ماتزوجتك ، فعلى الرغم من أن كريم يثق تماما في أنه سيتزوج ماريا ، فإنه يعلم أن العلاقة بين الزوج وزوجته لن تكون سمنا وعسلا في كل الأوقات ، وسوف تأتي لحظات تشتد فيها الأزمة ، وتتعرض العلاقة للامتحان . ويتخاصم الزوجان . وقد تكون بينهما قطيعة . أو ربما طلاق . وهذا أمر لاتقبله الكنيسة ، ولاتفهمه ، فالزواج عندهم ينعقد في

السماء ، ولا أحد يمتحن الرب إلهه ، ولا أحد يقبل وجود أزمة أو شبه أزمة فى علاقاته مع الرب ، فالكل يحمل صليبه ويتبعه .

وظهر الأب لورنزو ، ليقطع خواطر كريم ، فوجده رجلا نحيفا طويلا وقورا ، ووجده صغير السن لايتجاوز الخامسة والثلاثين رغم شعيرات بيضاء فى فوديه .

وقال الأب لورنزو بلهجة حزينة محايدة :

ـ أنت كريم صفوان ... الأستاذ كريم صفوان .

قال :

ـ نعم .

فانطلقت أسارير الأب وهو يقدم كلمات الترحيب ، ودعاه الى الجلوس على الأريكة ، وجلس هو الى المكتب وقال :

ـ أعرف أنك محام ودرست القانون .. وهذا سوف يجعل مهمتنا سهلة .. لأنى لا أريد أن أحتكم إلى أحد سوى عقلك .. عقلك الذى درس القانون ... وتعلم كيف يدافع عن حقوق الناس ... وكيف يحترم القوانين التى تنظم علاقاتهم ببعضهم البعض .

وسكت الأب لورنزو برهة . فلما وجد كريم صامتا ، استأنف حديثه وهو ينظر إليه مفسرا بنظرات عينيه ، ان صمت كريم يعنى أنه لايعترض على المقدمة التى أختارها لبداية الحوار بينهما . وسأل ليتأكد من هذا التفسير الذى اهتدى اليه :

ـ هل تأذن لى أن اتحدث معك فى موضوع ابنتنا ماريا ساندرو .

قال كريم بصوت هادىء :

ـ جئت من أجل هذا .

قال الأب :

ـ حسن جدا .

فقال كريم باسما :

ـ ولأنى اريد أن أتكلم معك .. واخاطب ايضا عقلك ..

اعتدل الأب لورنزو فى جلسته ، وقال بصوت قوى هادىء :

ـ يا استاذ كريم .. الزواج عندنا كما تعلم هو ارتباط ينعقد فى السماء ... والرب يجمع الرجل والمرأة من أجل بقاء الحياة .. فى صورة أولاد ... إنه لايجمعهما من أجل عاطفة دنيوية أو لذة جسدية أو شهوة أو رغبة ... الأولاد والزواج أمر واحد ، الزواج مسئوليات وواجبات ، وعطاء مستمر ، ولذلك اسألك ، هل تريد زواجا من غير أولاد .

ضحك كريم قائلا :

ـ بالعكس ... لا أظن أن أمى سترضى بأقل من دستة أولاد ، صبيان وبنات .

قال الأب لورنزو :

ـ أى دستة مشاكل ومسئوليات فى مثل حالتك ، ستكون مشاكل شديدة التعقيد . سوف ينشأ الأولاد حائرين بين دين أمهم ، ودين أبيهم . ستقول الأولاد مسلمون ، لأنهم يتبعون ديانة الأب . ولن يختار احدهم ديانة أمه ، لأن المسلم لايرتد عن الاسلام ولا تعترفون بارتداده . كذلك الأمر عندنا ... إن ماريا مسيحية كاثوليكية ، ونحن لا نعترف بارتدادها ، أى أن أولادها سيتعرضون لحيرة شديدة .. بين ديانة أمهم وديانة ابيهم ، ولماذا تدخل الأولاد فى مثل هذه التجربة ؛ ماالذى يدفعك الى اثارة هذه الأزمة ، التى هى نتيجة لزواج يقوم على رغبات دنيوية ، وماذا يحدث لو أن أحد الأولاد قرر اختيار دين أمه ، انك لاتستطيع ان تتجاهل هذا الغرض لمجرد أنك لاتريده ، أو لمجرد أن شريعتكم لاتقبله ، والقوانين لاتسمح به ، ان الأمثلة العملية موجودة ، فهناك حالات اختار فيها اولاد المسيحية لأنها دين أمهم ، وسافروا وهاجروا الى امريكا وكندا واستراليا ، وغيروا اسماءهم . بل تخلوا عن مصريتهم أو عروبتهم مع أنهم لو كانوا من أبوين مسيحيين أو من أبوين مسلمين ، لما تعرضوا لمثل هذه المواقف القاسية ، واحتفظوا بوطنهم ووطنيتهم ، ولما تمزقوا بين هذا وذاك . صدقنى يا استاذ كريم ، ان الزواج مع اختلاف الدين ، لايساعد على التقريب بين الأديان ، بل قد يعمل على العكس من ذلك . وأنا أناشدك ان تفكر قبل أن تقدم على أمر له مثل هذه الخطورة .

استمع كريم الى الأب لورنزو ، فى هدوء وصبر ، وكان ينصت باهتمام واضح ، لأنه كان يعلم أن الذى يقوله الأب ، ليس مجرد دفاع عن ماريا ، ومحاولة للاحتفاظ بها فى كنيستها وانقاذها مما سوف تتعرض له بزواجها من مسلم . إن الأب لورنزو يتحدث عن مشكلة حقيقية ، ولكنه لايتفق معه بأن علاجها يكون بالهرب منها . وقال كريم :

ـ صدقنى .. ان ماتتصوره من مشاكل رغم أنه صحيح فإنه لايبرر الهرب منها ، لأن نقطة البداية بالنسبة لى ليست هذه المشاكل ، وأريد أولا أن أقول لك أنى ياسيدى الأب مسلم ، وهذا يعنى أنى أؤمن بالمسيحية وأؤمن بالانجيل ، فالمسلم يجمع فى إيمانه كل ديانات السماء ، التوراة والانجيل والقرآن . كل الرسل والأنبياء ، المسلم هو الانسان الحر الذى يقف على الأرض شاهدا على الوصايا والأسفار والاصحاحات والآيات والسور ، فإذا كانت ماريا مسيحية فهى لن تجد منى كمسلم الاّ كل فهم بل وايمان بمسيحيتها ان الرسول صلى الله عليه وسلم تزوج من مارية القبطية التى جاءته من هنا من مصر ، فأرادت ان تدخل

الاسلام فطلب منها الاحتفاظ بمسيحيتها ، ثلاث مرات ولم يتعجلها قبل أن تدخل الاسلام لأنه لا اكراه فى الدين ، ولاشبهة اكراه ، أما الخوف من حيرة الأولاد بين الأديان ، فأنا أقول مثلك ، أنى لا أجرب الهى ولا أمتحنه ، ولا أخشى الحيرة لأن الاسلام هو الفطرة التى جعلنا عليها ، وماريا بفطرتها مسلمة ، وأنت ياسيدى الأب بفطرتك مسلم .. كل البشر بفطرتهم مسلمون . فإذا كان لك أن تختار الكنيسة بيتا لله ، وأن تعبده فى هذا البيت ، فهذا أمر بينك وبين الله يرى فيه مايراه ، وأنا لا أملك سوى أن احترم عقيدتك وان احترم كنيستك وأن احترم المسيحية فى المرأة التى سأتزوجها . ولكن بقى بعد هذا ان الذى يجمعنا أنا وماريا هو حاجتنا كبشر لأن نعيش معا . وان نسافر معا فى مركب واحد نشق به عباب بحر الحياة ونواجه امواجه المتلاطمة . انها فى حاجة الى ، وهى لم تدرك هذه الحاجة الاّ بعد ان مرت بتجارب قاسية لم يسعفها فيها من يدينون بدينها وينتمون الى كنيستها ، ولقد كان آخر ماتفكر فيه هو أن تتزوج رجلا مثلى . ماكان يخطر ببالها انها تتزوج صعيديا مسلما ، كانت احلامها مع ايطاليا والدوتشى ... ومع الملك ، ومع اولاد الذوات الايطاليين الكاثوليك ، وانتهت بها الظروف الى انها تريد صادقة ان تحيا بشرف فى هذه الدنيا . ومعى ، ومثل هذه الرغبة لا استطيع ان اتجاهلها او ارفضها ، بل اعترف لك انى ايضا فى حاجة اليها ، والاقدار جمعتنا ، أى ارادة الله هى التى جمعتنا ، وانا من جانبى لم أجد احدا فى هذه الدنيا يرغب فى ان يعيش معى فى الحلوة والمرة وينظر الى بلهفة وتمتد ذراعاه الى تبحثان عنى فى اشتياق انسانى ، لاشهوة أو نزوة ، كما رأيت ذلك فى ماريا ، فى لحظة أشبه بمعجزة ، ولعلها قالت لك ، كيف ظنت أنى مت فى الغارات بالاسكندرية ايام الحرب ، وانها تذكرتنى هنا فى الكنيسة وهى تصلى ، ولم يمض يوم حتى التقينا . صدقنى ياسيدى الأب ، كانت وهى مقبلة على ملهوفة على أن تمسك بى لتتأكد أنى حى ، وتمد يديها وتعانقنى بذراعيها ، كانت كما لو كانت تلدنى من جديد ، هذا اللقاء بين البشر ليس لقاء شهوة ، وليس لقاء لذة ، انه لقاء احتياج انسانى ، انسان يحتاج الى انسان ، الانسان يجب ان يعيش مع الناس وبين الناس ، وهذه هى نقطة البداية ، من هنا نبدأ فى مواجهة الأمر ، وليس نقطة البداية فى المشاكل والأزمات التى قد تنجم عن لقاء بين البشر ، البداية الصحيحة هى ان يكون هناك لقاء صادق . وما جاءت الاديان الاّ لتنظيم هذا اللقاء . ان آلاف البشر لايخرجون من وحدتهم ، والواحد منهم يقابل الآخرين وهو مازال وحيدا ، والرجل يقابل المرأة ، ويشتهيها وينتشى بجمالها ، ولكن النشوة تذهب ،

ويكتشف انه مازال وحيدا ، اما الاحتياج الانسانى الذى يخلصنا من الوحدة ، فهو فى السكن الذى يجده رجل فى امرأة ، وتجده امرأة فى رجل يشعر كل منهما انه يكتمل بالآخر . وهذا امر نادر . وهذا هو ماوجدته فى ماريا . ولا تهمنى الآن اخطاء سابقة ولا خطايا ارتكبتها ، فالمسيح الذى قال فى المرأة الخاطئة من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر ، هو الذى يعيش فى قلبى الذى يرحب به كمسلم . وقد اعترفت لى ماريا بكل ما اعترفت لك به ولسوف تجد منى كل رعاية ممكنة ، وهى التى اختارها الله لى ، وهى التى رضيت بها ، وهى التى قلت لها بلا وحى ، وقبل سنوات ، ودون ان يتصور احدنا ان ابواب السماء مفتوحة ، تعالى نتزوج على سنة الله ورسوله . ولقد جاءتك لتقول لك ، اريد ان اتزوج فى الكنيسة ، وهذا يفرحها ، ولأنها تريده ، فأنا ايضا اريده ، ولكنك ترفض ، ولو كان فى مقدورى لذهبنا أنا وهى الى الفاتيكان والتمسنا من البابا ان ينظر فى طلب ماريا . فهذا هو الذى يستحق الاهتمام منا نحن البشر نحو انفسنا ... ان نهتم باحتياج الناس الى بعضهم بعضا ، وان نعرف بعضنا بعضا ، وان نسكن الى بعضنا بعضا وان نتعاون ونتعارف امما وشعوبا وان تكون بيننا مودة ورحمة .

قال الأب لورنزو .

ـ ليت الواقع يتفق مع مشاعرك هذه ، ولكن الدنيا التى نعيش فيها ليست خيرا خالصا كما تظن ، فالخطيئة قائمة ، والفساد قائم ، والشر لايترك الخير فى سلام والسكن الوحيد المريح هو ذلك الذى تجده فى ملكوت السماء وليس على الأرض وأنا لا استطيع الاّ ان اصلى للرب من أجل أن يهدى البشر الى الطريق القويم .

وبعد هذا اللقاء بين الأب لورنزو وكريم صفوان ، ذهب الأب مباشرة الى بيت ماريا ، وكانت السنيورة ماتيلدا تبكى وتردد :

ـ هذه هى نهاية العالم ...

وحكى الأب لورنزو عن انطباعاته عن كريم ، فامتدحه ، ولكنه قال أنه شاعر رومانتيكى يخلط الأحلام بالواقع ، وان مثل هذا الشاعر لن يستطيع مواجهة مسئوليات الحياة فى عالم بعد الحرب ومسئوليات أولاد يولدون فى زمن صعب .

وقال الأب لورنزو لماريا :

ـ كيف تحرمين أولادك من التعبد والاعتراف والمناولة ... كيف تحرمينهم من أمهم الكنيسة .

وهتفت السنيورة ماتيلدا :

ـ وكيف تتخلى عنى ... وعن اهلها وعن أبيها وعن أخيها ماريو .. كيف تتخلى

عن معارفها ... عن ذكرياتها ... فقال الأب لورنزو مهدئا روعها :

ـ ان ماتمر به ماريا ... أزمة سوف تزول .

قالت ماريا يائسة :

ـ اما أن اتزوجه ... أو أدخل الدير ...

فنظر اليها الأب لورنزو طويلا ، قبل ان يهمس :

ـ سوف أصلى من أجلك ... وسوف يختار لك الرب طريقك .

وخرج الأب لورنزو وقد دارت رأس ماريا بمخاوف لاتستطيع أن تحددها ، وتمنت لو أنها أغمضت عينيها وفتحتهما فوجدت نفسها راهبة فى دير لاتدرى عن هذه الحياة الدنيا شيئا ... وكان كل مامر بها كان حلما لاقيمة له . وبكت وبكت ، حتى أرهقها البكاء . فنامت فلما استيقظت فجأة ساعة الفجر اكتشفت أنها كانت تبكى وهى نائمة ، ودفنت رأسها فى الوسادة وواصلت البكاء ، ورأت وهى تبكى بين اليقظة والنوم صورته ، كريم صفوان ، وقالت لنفسها وعلى الرغم منها .

ـ ولكنى آريده .

وسألت نفسها بصوت يكاد يكون مسموعا مختلطا بالنحيب الذى لاينقطع .

ـ أهو الشيطان يتسلل الى ليمنعنى عن كنيستى ؟ .

فلما جاء الصباح ، تركت فراشها ، وغسلت وجهها ، وعرفت أنها لابد أن تذهب إليه ، وقالت له بسذاجة وجدية وعيناها تنظران فى عينيه فى صرامة ، وكانت جالسة بجواره فى سيارته :

ـ هل أنت الشيطان ؟ .

نظر إليها فى عجب ، فقد كانت جادة فى سؤالها ، ولم يستطع أن يهزأ أو يسخر من السؤال ، فقال لها جادا وهو يشعر أنه يقاوم شيئا غامضا رهيبا يضيق عليها الخناق :

ـ تستطيعين أن تحكمى بنفسك ... ولكن أرجوك لاتنظرى إلى كما لو كنت شيطانا ..

سألته :

ـ وهل أستطيع أن أعرف بنفسى ؟ ..

قال :

ـ أستفتى قلبك ... استفتى إيمانك ..

سألته بحدة تقاوم الارهاق الذى يخنقها .

ـ أى إيمان تعنى ؟ .
قال :
ـ إيمانك بألله .
سألته مستريبة .
ـ إله المسلمين .
قال بسرعة .
ـ والمسيحيين ... واليهود ... أنه إله واحد ...
وفجأة رفع كريم صوته فى ضيق :
ـ ماذا بك ... ماهذا التخريف الذى يشغل رأسك .
فنظرت إليه ، وقد أفزعها صوته الزاعق ، ووجهه الغاضب ، وفجأة ارتمت عليه باسمة وهمست :
ـ أحبك .
عندما تأزم الموقف بينهما ، لم تجد سوى أنها تحبه ، أن تسكن الى الانسان الوحيد الذى تطمئن إليه .
وسمعته يهمس بحنان وتأثر :
ـ أنت مجنونة بلا عقل .
همست :
ـ لأنى أحبك .
قال لها .
ـ لن يضيع مابيننا فى أمور سوف يفصل فيها الله الذى هو الهى والهك ..
وابتسم وقال :
ـ تعالى نتزوج على سنة الله ورسوله .. وبعد ذلك ليكن مايكون . وليتركوننا وشأننا ، فأنا وأنت لسنا كاذبين عندما نريد أن نعيش معا .
وذهبا الى المأذون وتزوجا .

الفصل الثانى عشر

أما وقد تزوجت ماريا ساندرو من الاستاذ كريم صفوان المحامى ، فقد بلغت قصتها نهاية المطاف ، والأحداث التى فرضت نفسها بعد ذلك ، وأعادت إلينا هذه الذكريات ، لاتتصل بكريم صفوان المحامى الذى عرفته ماريا بنت شبرا وتزوجته فى الأربعينيات ، بل هى تتعلق بحفيدها الطالب كريم صفوان الذى يعيش الآن فى الثمانينيات . والذى انقطعت صلته تماما بجدته ماريا ساندرو ، لأنه عاش مع عائلة أمه فى الاسكندرية بعد أن استشهد أبوه فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ .

وطالب الحقوق صفوان لايعلم غير حقيقة واحدة تلح عليه ليل نهار ، وهى أن اباه مات فى الحرب برصاص صهيونى اسرائيلى يهودى ، وأنه عربى مصرى مسلم لابد أن ينتقم لأبيه من الذين يريدون قتل المسلمين وابادتهم .

إسلام كريم صفوان الحفيد قد تأثر بالتعصب الصهيونى الدينى الذى تسبب فى حروب سال فيها دم أبيه . أما اسلام كريم صفوان الجد ، فقد واجه أزمة الحضارة الأوربية المسيحية أثناء حرب ضروس ، وفتاة مسيحية ايطالية توشك أن تصبح ضحية لانهيار القيم السائدة فى مجتمعها بسبب الحرب والهزيمة التى لحقت بالقادة الايطاليين . هنا تجلى الاسلام برحابته الانسانية ، فاحتضن كريم المسلم ماريا المسيحية ، محافظا على عقيدتها ، محترما لديانتها ، رافضا استغلال ضعفها ، فقبلها زوجة له ، وأما لأولاده ، رغم ما اعترفت به من خطايا ارتكبتها وآثام اقترفتها . وكان كريم صفوان الجد قادرا على إقناع ماريا بأنها من وطنه وأهله فأخرجها من عزلتها وخلصها من غربتها ، أما كريم صفوان الحفيد فقد بلغ من تأثره بالتعصب الصهيونى ، أنه يريد أن يحتفظ بعزلته وغربته عن أهله ووطنه ، يريد الهلاك للآخرين ، لأنه فى قرارة نفسه يجتر رغبة جامحة فى الانتقام .

هذا هو ما تصورت أنه المعنى الذى فهمته من حكاية السيدة ماريا ساندرو ، لولا تطورات مفاجئة وقعت عندما اتصل بى زوج ابنتها الاستاذ سعد المقاول

الثرى ، وطلب إلىَّ ان أزور السيدة حماته ، وقال بلهجة يغلب عليها تأثر مصطنع ، أنها مريضة جدا ولعلها تمر بفترة الاحتضار .

أسرعت الى بيتها فى الزمالك ، ولم أسمع ما يردده الاستاذ سعد وهو يستقبلنى ، ويقودنى الى حجرتها . كانت مختبئة فى فراشها ، إلا رأسها ، وما كادت ترانى ، حتى تمتمت بصوت ضعيف ، ولكنى سمعته يدوى فى أذنى :

- أريد أن أراه .. اريد أن أرى كريم .

وأغمضت عينيها ، فكأنها تسقط فى هوة سحيقة داخلها . تغيب فى أعماق داخل جسدها ، الذى سيتبدد شكله على نحو ما فى أية لحظة قادمة ، ولكنها ستبقى رغم ذلك ماريا ساندرو .. الذكرى والمعنى والتجربة الانسانية .

وسمعت صوت الاستاذ سعد يسألنى :

- هل هذا ممكن يااستاذ ؟

همست وأنا لاأدرى كيف أخرج الولد كريم صفوان من سجنه لتراه جدته .

- سأحاول .

وفتحت هى عينيها ، ونظرت الى وشبح ابتسامة على شفتيها ، ولكنه كان أوضح فى عينيها ، وكان يشع منهما وهج يتمسك بالبقاء ، ويتشبث بالحياة . وارتعشت شفتاها . بالحركة الوحيدة المتبقية فى جسدها ، غير وهج عينيها . وهمست :

- اتركنا ياسعد .

نظر الى سعد مترددا ، وقد فاجأه الطلب ، ولكنه قال بصوت مرتفع : حاضر .

وخرج وأغلق الباب ، وكانت تنظر فى اتجاه الجدار خلفى ، وفى عينيها ذلك الوهج يوشك أن ينطفىء . وسمعتها وكأنها تخاطب نفسها :

- الأب لورنزو .. جاء فى الصباح .

وسكتت برهة ثم همست :

- لم يبق الا أن أراه .

ولا أدرى كيف ارتفع صوتها فجأة فوق الهمس وهى تقول :

- عندما كان كريم مريضا فى مثل حالتى .. كنت أصلى له كمسيحية ، ثم اقرأ آيات القرآن وادعو له بالشفاء كمسلمة .. امام المرض وعندما تشتد حاجتنا الى معونة السماء من اجل انسان نحبه ، من اجل روح حية توشك أن تغادر جسدها ، تصبح اللهفة الى السماء فوق كل الطقوس واكبر من تعاليم الاديان . كنت اتوجه الى السماء بكل ما أعرفه ، وبكل ما آمنت به ، وبكل ما آمن به زوجى .

وأغمضت عينيها ، وما عادت تنطق أو حتى تتنفس ، وقد تجمدت فى مقعدى وقد استولت على رهبة ، وأنا فى شدة العجب من كلماتها ، ومن قدرتها على

صياغتها على هذا النحو . وفجأة فتحت عينيها وقالت بلهجة قوية آمرة وكأنها تسترد عافيتها :

ـ اذهب، واحضر لى كريم .

غامت عيناى ، ولم اعد قادرا على رؤيتها ، وألقيت نظرة على النافذة والستائر البنية المنسدلة عليها ، لولا فرجة يبدو منها ضوء النهار ، ربما كان هذا آخر ضياء لآخر نهار ـ سوف تراها ، ولكن من يدرى ، فالاعمار بيد الله ، ولا استطيع أن اتحدث عنها وكأنها سوف تغادر هذه الدنيا فى الحال ، ولعل هذا الضياء هو آخر ما أراه أنا ، ولعلها تعيش بعد ذلك ، اياما او سنوات ، بينما اكون انا الذى ذهب واختفى .

وخرجت من الحجرة ، ولكنى لم أقو على مغادرة البيت ، جلست منهكا لا اقوى على الحراك ، شىء ما يكاد يدفعنى الى حجرتها من جديد ، ليس هكذا تنتهى علاقات البشر ، لقد خرجت من الحجرة دون أن التفت اليها ، لماذا لم أهمس بكلمة فيها تشجيع لها ، لماذا لم أرفع صوتى ابتهل وادعو لها بالشفاء ، وكان صوت الاستاذ سعد يطاردنى فقلت له :

ـ انها تريد ان ترى حفيدها . وسوف احاول .

ومددت يدى له مصافحا ، واستجمعت قواى وغادرت البيت .. هل هناك وقت ؟ هل استطيع حقا ان اخرج حفيدها كريم من الحبس ولو لساعتين او ثلاث لتراه ويراها ؟ لابد أن اتحرك بسرعة . ووصلت الى سيارتى وأنا ألهث . أكتشفت انى جريت اليها رغم تقدمى فى السن .

استطعت ان اتصل بالنائب العام ، وشرحت له مطلبى ، وقد تأثر غاية التأثر بما رويته له . وكان يقاطعنى بين حين وآخر ويردد السؤال ، لعله يقتنع بما يسمعه .

ـ تقول جدته مسيحية .. وحفيدها فى جماعة التقوى والتقية . هل هذا معقول ؟

وقال مرة أخرى :

ـ كل شىء اختلط فى هذا العالم . الجدة كاثوليكية والحفيد مسلم متطرف ، وفى الصحف اخبار مسلمين يقتلون مسلمين ، ومسيحيين يقتلون مسيحيين ، ومسلمين يحاربون مسيحيين ، ومسيحيين يحاربون مسلمين ، ويهود يحاربون الجميع . ان العالم يفقد عقله .. وهذه ولاشك من علامات نهاية العالم .

وأخيرا هتف :

ـ سوف ألبى طلبها .. سوف اجرى اتصالاتى .

بعد ساعتين ، وكانت السادسة مساء ، كنت فى مكتب النائب العام ومعى كريم

صفوان فى حراسة ضابط .

وسألنى كـريم :

ـ هل أفرجوا عنى .

قلت :

ـ لا .

فعاد يسألنى متجهما :

ـ لماذا أنا هنا ـ لا أحد يريد أن يقول شيئا .

قلت بسرعة :

ـ جدتك تحتضر .. وتريد ان تراك .

كان وجهى مازال يحتفظ ببعض ملامحه الحزينة التى لم تفارقه منذ كنت فى حجرتها . وكان صوتى مازال يحتفظ بنبرة التأثر التى غلبت عليه منذ سمعتها تتحدث معى . ولعل هذا هو الذى جعل الولد يصمت ، وينتابه الوجوم . وكنت أخشى ان يحتفظ بوقاحته فى تلك اللحظة ، وان يرفض المجىء معى ، بحجة أنه لن يترك السجن الا مع اخوانه . ولكنه تحرك فى هدوء ، ولم يبد أية معارضة ، ولم يزعج الضابط الذى يرافقه والجندى الذى انضم الينا ونحن نركب سيارة السجن المقلقة ذات النوافذ الحديدية .

دخلت مع كريم وحدى على ماريا ، كانت مغمضة العينين ، ولكنها شعرت بوجودنا ، ففتحت عينيها ، وأدركت على الفور أن وهج عينيها يتناقص ويوشك أن ينطفىء ، ونظراتها آتية من بعيد ، من مشارف أعماقها السحيقة التى توشك أن تختفى فيها ، وهى الآن عند حدودها الفاصلة بين هنا .. وهناك . ولكن سرعان مازاد الوهج وارتعشت شفتاها تضيئان وجهها الشاحب بابتسامة حلوه غامضة ، ولكن اللهاث كان يرتفع مع صوتها وهى تهمس بصوت متحشرج :

ـ كريم .

ثم همست :

ـ انت تشبهه تماما ..

واضاءت ابتسامتها ، وارتفع صوتها فوق الهمس ، وفيه رنة فرح ما كنت اتوقعها . وهى تقول تخاطبنى أو تخاطب نفسها :

ـ هاهو كريم يعود .. هذه المعجزة الثانية .. قالوا إنك مت فى غارات الاسكندرية .. ولكنك عدت لى .. سانت تيريز لن تتخلى عنى أبدا .. وقالوا أنك مت عندما مرضت وتركتنى .. ولكن ها انت تعود ..

همست لكريم الذى كان قد جلس بجوارها وقد استولت عليه رهبة .

ـ انها تظن أنك جدك . فأنت تشبهه فعلا عندما كان فى مثل سنك ..

لم يلتفت الى كريم ، ولكنى لاحظت أن عينيه مغرورقتان بالدموع .
وفجأة قالت ماريا مخاطبة كريم .. باسمة :
ـ لماذا تنظر الى هكذا .. هل ؟ أنا فترينة ..
همس كريم فى دهشة اقرب الى الخوف :
ـ أى فترينة ياجدتى ..
فأبرزت يدها تريد أن تتحسس وجهه ، فارتمى على يدها يقبلها .
وهمست :
ـ سوف تصلى لى .. كما صليت من أجلك .
همس :
ـ نعم ياجدتى .
همست :
ـ صلاتك أنت .
قال كريم باسما . وكانت أول مرة .. اراه يبتسم فيها :
ـ لا أعرف غيرها ياجدتى .
وأغمضت عينيها ، تستجمع قواها . والتفت نحوى كريم يسألنى :
ـ وماذا يقول الطبيب . اين هو ؟
قلت وأنا اتذكر كلمات قالها الاستاذ سعد ولم انتبه اليها ولكن ذاكرتى احتفظت بها .
ـ الطبيب كان معها فى الصباح .. وسيعود لزيارتها فى المساء .. وقد سألوه أن ينقلوها الى المستشفى .. ولكنه نصح ببقائها فى فراشها ..
وفتحت عينيها من جديد . ولدهشتى بدت وكأنها قد استردت عافيتها . فها هى تحاول أن تجلس فى السرير . وكريم يضع وسادة خلف ظهرها واذا بها تقول له :
ـ الشر جميل فى عيوننا ياكريم . فى يوم ما كان جدك غريبا عنى .. وكنت اتمنى ان اتزوج وأن يكون لى أولاد وأحفاد لهم جمال شاب اسمه تونى برتولدى . أو حتى فى جمال أبى .. ولكنى عرفت أن الجمال الحقيقى .. فى قلوبنا .. كان جدك يقول لى : استفتى قلبك ياماريا .. فهذا هو الاسلام ..
وسكتت لحظة ، قبل ان تقول :
ـ أنا لا انصحك .. ولكنى اقول لك استفت قلبك ..
وأغمضت عينيها من جديد . واذا بوجهها يتحول الى قناع من الشمع واختفت الابتسامة . كانت هى أيضا تختفى فى ذلك القناع السحيق فى جسدها الذى لن يصبح جسدها .
وبكى كريم وهو يرى بين دموعه آخر ماتبقى له من أم أبيه .. أم ذلك الرجل

الذى اختفى جسده فى رمال سيناء . وساد الصمت الحجرة . ودخل الاستاذ سعد علينا ومعه الطبيب . الذى طلب إلينا الخروج على الفور .

وعاد الضابط ومعه كريم الى السجن . وأنا لا أعرف ما الذى سوف ينتهى إليه أمره . ولم أجرؤ على مفاتحته فى موقفه من الاتهام الموجه أليه ، أو أعاود طلب الدفاع عنه ، فالوقت غير مناسب لاثارة مثل هذه الأمور . وفى صباح اليوم التالى اخبرنى الاستاذ سعد أن ماريا ساندرو قد ماتت . وطلب إلىَّ أن اعاونه فى كتابة النص الذى ينشر فى جريدة الأهرام ، فهناك أسماء مصرية الى جوار اسماء ايطالية ، واسماء مسلمين الى جوار اسماء مسيحيين وفى اليوم التالى قرأت النعى وقد نشرت الاهرام فى صفحتها الاولى ، اخبار وصور معارك بين يهود ومسلمين ومسيحيين . فسألت نفسى لماذا يسبق البشر حكم السماء ؟ ، ولماذا يصفون حساباتهم الدنيوية تحت ستار حب السماء ؟ ، ولماذا يسفكون دماء بعضهم بعضا ، باسم اله واحد ، رب واحد ، يزعم الجميع أنهم يؤمنون به ؟

وكانت الدنيا فى الخارج ، هى نفس الدنيا ، شوارعها مزدحمة ، وشمسها ساطعة بلا سحاب ، وضجيجها محموم مجنون . وكانت صورة كريم صفوان والدموع فى عينيه وهو يقبل يد جدته ، تجذبنى إليها كما لو كانت تخلصنى من جنون المدينة . كريم يحب جدته ، وهذا الحب غلب أى أفكار أو أجتهادات سياسية أو دينية تورط فيها . إن مشاعر الحب بين الجدة والحفيد لن تتعارض مع شعور دينى صحيح . وهذا معنى عرفته من هذه التجربة ، واعتبره كنزا من كنوز المعرفة ، لايعدله أى كنز آخر .

وكانت الصلاة فى الكنيسة تجمع مسلمين أكثر من المسيحيين ، فلا أحد يعرف ماريا ساندرو .. الكل سافر أو هاجر ، وعالمها الذى كانت تعرفه اختفى وتحول الى ذكريات منسية ، فمن من سكان شبرا اليوم يعرف أيام النادى الايطالى ، والبيوت التى كان يسكنها الايطاليون ، كل شىء قد تغير ، حتى الشوارع والحارات قد اقتلعت من احشائها .

كانت الصلاة قصيرة وسريعة ، والكل فى عجلة من أمره ، وكان من المتفق عليه أن يذهبوا بجثمانها الى مقابر اسرة زوجها ، مقابر المسلمين ، فقد قال الأب الذى كان يصلى عليها إن الأمر سيان لديه ، فالمهم بالنسبة له هو الصلاة ، صلاة الأحياء على الاموات ، وصلاة الأموات على الأحياء . فكان هذا المشهد النادر أن يخرج الجثمان من الكنيسة فى السيارة التى حملته الى مقابر زين العابدين ، ليدفن محاطا بالشعائر الاسلامية ، وشيخ يقرأ القرآن . الطريق الى الله واحد ، وفى لحظة الموت ، لحظة الافتراق عن هذه الدنيا تتجاوز الصلة بين الانسان وخالقه كل تعاليم الدنيا ونظمها . فالانسان وهو على مشارف مملكة

الأخرة ، يترك تعاليم الأرض للذين مازالوا على الأرض ، أما هو فله فى عالم الغيب شأن آخر لا يعلمه إلا علام الغيوب .

وبينما كانوا يغلقون فتحة القبر ، فوجئت بيد تربت على كتفى ؟ والتفت فرأيت الأب لورنزو كهلا وقورا ، لا أدرى كيف وصل الى هذا المكان .

وهمس :

ـ هذه إمرأة غير عادية .

قبل أن أفيق من دهشتى . كان يقول :

ـ لعلها هى التى كانت سببا لقرار البابا بيوس أن تقبل الكنيسة عقد الزواج بين طرفين احدهما من ديانة أخرى .

وأردف قائلا :

ـ للأسف . عندما كان مثل هذا الزواج ممكنا ، كان زوجها قد توفى . وقد ذهبت اليها واعتذرت لها فقالت لى راضية :

ـ زواجى بكريم يرضى عنه الرب .

واذا بعينى الأب لورنزو تغرورقان بالدموع وهو يقول :

ـ ولكنها بكت ..

قلت وانا احاول أن أكتم انفعلاتى :

ـ كانت سيدة عظيمة

فقال :

ـ سوف اصلى لها .. وهى ايضا سوف تصلى لنا

« تمت »

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية : ١٨٥٢ / ٨٦
الترقيم الدولى : ٥ ـ ٢١٤ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ — ISBN

كتاب الهلال يقدم

الجزء الثاني من :

رحلاتي حول العالم

بقلم

د . نوال السعداوى

يصدر في : ٥ مارس ١٩٨٦

روايـات الهـلال تقـدم

لو جـاء الغـد

بقلـم

سيـدنى شيلـدون

ترجمـة

محمـود مسعـود

تصـدر فـى : ١٥ مـارس ١٩٨٦

١٠٠ قــرش

هذه الرواية

بنت من شبرا قصة فتاة عاشت في الثلاثينيات باوهام انها ايطالية وليست مصرية . وانها ابنة المجد الذى سيحققه موسوليني ديكتاتور روما عندما تغزو جيوشه مصر . كانت بنت شبرا ابنة حلاق السراى الملكية لاترضى باقل من عرش ملك .

ولكن الأوهام تتبدد . جيوش موسوليني تتحول إلى اسرى فى صحراء مصر . ويسقط الديكتاتور تحت احذية الغضب . ولاتجد بنت شبرا خلاصها عند الملك او قبلاء ايطاليا . فتبحث عن خلاصها فى معجزة للقديسة سانت تيريز .

رواية اخرى جريئة . يقتحم فيها فتحى غانم عوالم جديدة من الحياة المصرية . تتناول خفايا القصور . ومشاكل اختلاف الاديان والثقافات [illegible] إبان الحرب العالمية الثانية التى اجتاحت القيم والتقاليد [illegible] فلم يصمد إلا الاصيل .

[illegible] فيها المحامي الذى طلبت منه ماريا الكاثوليكية بنت شبرا أن يدافع [illegible] القضاء عن حفيدها عضو جماعة اسلامية متطرفة !